سلسلة رواد المشرق العربي



رحلات إلى الأراضي المقدسة

تأليف: ليوناردو فريسكوبالدي

سيمونه سيغولي

ترجمة: شيرين إيبش

تحرير وتعليق: د. أحمد إيبش

رحلات إلى الأراضي المقدّسة

أواخر القرن الرابع عشر الميلادي

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.
Frescobaldi, Leonardo, 1384 - 1405.
[Viaggi in Terra Santa. Arabic]
رحلات إلى الأراضي المقدسة: أواخر القرن الرابع الميلادي / ليوناردو فريسكوبالدي، سيمونه سيغولي؛ ترجمة شيرين إيبش؛ تحرير وتعليق أحمد إيبش. - ط 1 - أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، 2010.
ص. ؛ سم.
ت دم ك 978-9948-01-713-4
ترجمة كتاب: Viaggi in Terra Santa
1- بلاد الشام - وصف ورحلات. 2- مصر - وصف ورحلات. 3- سيناء - تاريخ. أ- إيبش، أحمد. ب- إيبش، شيرين. جـ- Sigoli, Simone, 1384 - 1390. د- العنوان.

LC DS105 .F7412 2010

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

الطبعة الأولى 1431هـ 2010م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380
publication@adach.ae
www.adach.ae

سلسلة روّاد المشرق العربي

رحلات إلى الأراضي المقدّسة

أواخر القرن الرابع عشر الميلادي

للرحّالين الإيطاليين

ليوناردو فريسكو بالدي

سيمونِه سيغولي

ترجمة

شيرين إيبش

تحرير وتعليق

د. أحمد إيبش

سلسلة
روّاد المشـرق العربـي

تقدّم «هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث» للمكتبة العربيّة بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، باكورة نتاجها من هذه السّلسلة الثقافيّة التّراثيّة تحت عنوان: «روّاد المشرق العربي». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّة، وذلك من خلال الحرص على جمع كافّة المصادر المتعلّقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّساتنا الثقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسة ورياضيّات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرّحلات.

* * *

وما دُمنا بصدد ذكر تُراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نوكّد على أنّ ثمّة تيّاراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة، ألا وهو: أدب رحلات الأوروپيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتمّ التّركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة، ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي بوجه الإجمال.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلة آناباسيس لزينوفون الأثيني، ورحلة هيرودوتوس)، والرّومان (كرحلة إيليوس غالوس). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشام مدّة 196 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها ارتدّت على أعقابها.

فلمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروپيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة.

أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشائقة الشيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها. وكانت الحصيلة أن تركوا لنا عدداً كبيراً من النصوص الشائقة والمثيرة، تروي أحداث رحلاتهم ومغامراتهم.

* * *

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تقوم «هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث» اليوم بنشر باكورة أجزائه بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منها وتقديمها للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث

* * *

هذا الكتاب

في العام الماضي 2009 كنا قد افتتحنا سلسلة جديدة من أهمّ أعمال الرحّالين الطليان إلى مشرقنا العربي، بنشر كتاب *Il Neged Settentrionale* «نجد الشمالي» للرحّالة الشهير كارلو كاميلّو غوارماني، بعدما طال انتظار القرّاء له 144 سنة لبثها وهو بلغته الإيطالية الأم، منذ أن صدرت طبعته الأولى بالقدس الشريف عام 1866. فاليوم، يطيب لنا أن نفي بوعدنا بالمتابعة في تقديم المزيد من كتب هذه الرّحلات، التي تتصف بالمتعة والندرة والفائدة.

نقدّم اليوم كتابين لرحّالين إيطاليين، هما: ليوناردو فريسكوبالدي وسيمونِه سيغولي، زارا المشرق الإسلامي (مصر وفلسطين وسوريا ولبنان) في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، إبّان قيام دولة المماليك البرجيّة على يدي السّلطان الملك الظاهر برقوق. ونصّهما مهمّ وحافل بالمعلومات والوصف الحيّ الدقيق، ويغلب عليه طابع الرّواية الشخصية وتفاعل مؤلفيه بالأحداث. ومن أهمّ ما يلاحظ عليه تقديمه لصورة غنيّة مليئة بالحركة والألوان والتفاصيل الدقيقة الجذابة لمجتمعات بلادنا قبل 16 عاماً فقط من كارثة الاجتياح المغولي، التي عصفت بمشرقنا العربي في عام 1400 م، وتركت بعض بلدانه ومدنه (مثل دمشق خصوصاً) قاعاً يباباً، بعدما كانت زاهرة عامرة ترفل بالحضارة والحياة.

وعلى ذلك، فمن المفيد جداً لنا اليوم أن نعقد مقارنة بينهما وبين بعض نصوص رحّالينا العرب، الذين جابوا بلدان المشرق الإسلامي في الفترة ذاتها، وخاصّة نصوص النّويري والبغدادي والعُمري وابن بطوطة، اللواتي قدّمناها في هذه السلسلة بكتاب «دمشق في مرآة رحلات القرون الوسطى».

هذا ولا بدّ لنا من الإشارة هنا إلى أنّ ثمّة رفيقاً ثالثاً لكلّ من فريسكوبالدي وسيغولي، هو جورجو غوتشي Giorgio Gucci شاركهما في الرّحلة عام 1384 م، ودوّن هو الآخر عن مشاهداته كتاباً صغيراً بعنوان: *Viaggio in Terra Santa* «رحلة في الأرض المقدّسة»، ذكر فيه أشياءً وتفاصيل لم يذكراها، فأكمل بذلك جمالية الصورة التي رسماها. وفضلاً عن رونق الوصف ودقّة التصوير، نلاحظ أن لهجة هؤلاء الرحّالين الحجّاج الثلاثة فيها تقدير شديد لمشرقنا العربي، فذكروا كثيراً من الأمور التي تدعو إلى الإعجاب، كما كانت نظرتهم إلى المسلمين نظرة إيجابيّة إجمالاً، إذ تبيّنوا تكريمهم الكبير للمسيح ومريم العذراء (عليهما السّلام)، وتسامحهم تجاه الحجّاج الأوروپيين القادمين إلى المشرق.

وقبل أن نتابع حديثنا حول رحلة صاحبي النصّين اللذين نقدّمهما اليوم، يتوجّب علينا أن نعدّد بسرعة أهمّ الرحّالين الطليان الذين سافروا عبر المشرق: ماركو پولو، أوديريكو دا پوردينونِه، جاكومو دي ڤيرونا، ريكّولدو دا مونته كروتشِه، مارينو سانودو، نيكّولو دا پودجيبونصي، ليوناردو فريسكوبالدي، سيمونِه سيغولي، جورجو غوتشي، ميشولاّم دي ڤولتيرّا، أوباديا دا بِرتينورو، لودوڤيكو دي ڤارتيما، موزيه باسولا دي آنكونا، جوڤانّي فيناتي، رِنتزو مانتزوني، جوزيپّه كاپروتّي، ڤينشِنزو ماوريتسي.

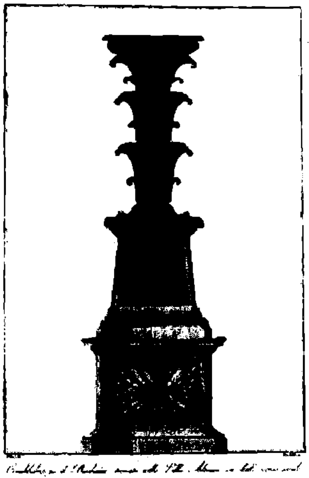
من بين هؤلاء قمنا بترجمة نصّ غوتشي، ونقوم حالياً بترجمة كتاب رحلات لودوڤيكو دي ڤارتيما، رائد الرّواد الطليان والأوروپيين عموماً في الترحال عبر جزيرة العرب وصولاً إلى اليمن، وكان يدّعي الإسلام ويتكنّى باسم الحاج يونس المصري، ونصّه يقدّم متعة وأوصافاً وفوائد لا تجارى. هذا من جهة، ومن جهة أخرى حصلنا على نصّين نادرين، الأول لنيكّولو دا پودجيبونصي الذي جال في المشرق الإسلامي لمدّة 5 أعوام (1346–1350 م)، والآخر رِنتزو مانتزوني الذي أقام بعَدَن في عام 1877 م، وزار في خلال ذلك صنعاء 3 مرات زيارات مطوّلة (بين 1877–1880 م) وجال في طريقه بجنوب اليَمَن، فقدّم فوائد تفوق ما جاء به الرحّالة الدّانماركي كارستِن نيبور (الذي سنصدره قريباً).

مخطوطات رحلة فريسكوبالدي:

Rome, Biblioteca Barberiniana, ms 932.
Florence, Biblioteca Nazionale, once Magliabechiano, XIII,70
idem. XXI,121.
Florence, Biblioteca Riccardiana, ms 818 misc. entitled "Viaggi d'Oltramare" idem. ms 2257.
Also a codex, once in the collection of Leo S.Olschki, described by E.Vajna de Pavia in *"La Bibliofilia"* anno VII (Florence 1906) pp. 347-349. This may have been the Ricasoli manuscript.

* * *

في عام 1995 بيعت بالمزاد العلني في مؤسسة كريستيز Christie's بلندن نسخة مخطوطة نادرة من كتاب فريسكوبالدي بمبلغ 14,950 جنيهاً، مكتوبة على الرّق باللغة الإيطالية بعنوان: *Viaggio d'oltremare* «رحلة ما وراء البحار»، ويعود تاريخ كتابتها إلى مطلع القرن الخامس عشر. يبلغ قياسها 17.8 X 25.3 سم وعدد أوراقها 31 ورقة، مكتوبة بحبر بنّي بخطّ قوطي مدوّر متأخر. كانت المخطوطة بحوزة آل فريسكوبالدي في فلورنسا منذ القرن السابع عشر (وغالباً قبل ذلك) حتى القرن التاسع عشر، وهي من أقدم نسخ الكتاب. وعلى غلافها قيود بأسماء من تملّكها من العائلة. وعلى الرّق الذي يغلّف المخطوطة رسم بالحبر.



نموذج للرّسم الموجود على ورقة غلاف المخطوطة الفلورنسيّة.

أول طبعة صدرت لرحلة فريسكوبالدي كانت في روما سنة 1818، بعناية غوليلمو مانتزي، استناداً إلى مخطوطة مكتبة باربيريني في فلورنسا:

Frescobaldi, *Viaggio in Egitto e in Terra Santa*. Ed. Guglielmo Manzi, from the Barberiana manuscript. Rome 1818.

تلت ذلك طبعة أخرى بعناية غارجولّي في فلورنسا، سنة 1862:

Viaggio in Terra Santa. Ed. G. Gargiolli, from the Riccardiana mss. Florence, G. Barbèra, 1862.

لكنّ أحسن نشرة للرحلة قام بها الأديب الإيطالي الكبير تشيزَرِه آنجيليني، وأصدرتها دار نشر فيليتشِه لومونييه في فلورنسا عام 1944:

Viaggi in Terra Santa, a cura e con prefazione di Cesare Angelini. Casa Editrice Felice Le Monnier, Firenze, 1944.

كما صدرت عن الدّار ذاتها طبعة حديثة في عام 1999.

* * *

أما رحلة سيغولي *Viaggio al Monte Sinai* «رحلة إلى جبل سيناء»، فقد تولّى نشرها الأكاديمي الإيطالي الكبير لويدجي فياكّي في فلورنسا 1829، وقدّم لها الباحث فرانشيسكو پودجي:

Viaggio al Monte Sinai di Simone Sigoli, Firenze, 1829.

كذلك صدرت ترجمة إنكليزية جمعت بين الرحلات الثلاث معاً، قام بها ثيوفيلوس بيلّوريني ويوجين هودي، مع مقدّمة وحواشٍ كتبها بلّارمينو باغاتّي، وصدرت عن مطبعة الآباء الفرنسيسكان بالقدس عام 1948 (207 ص):

Visit to the Holy Places of Egypt, Sinai, Palestine and Syria in 1384 by Frescobaldi, Gucci and Sigoli. Translated from the Italian by Th. Bellorini and E. Hoade, preface by Bellarmino Bagatti. Jerusalem, *Publications of the Studium Biblicum Franciscanum* no.6, 1948.

رجعنا في نشرتنا هذه بالدرجة الأولى إلى طبعة آنجيليني الفلورنسيّة، التي صدرت في 269 صفحة بالقطع الصغير، وهي أصحّ طبعة لرحلتي فريسكوبالدي وسيغولي. وكان البحث عنها مضنياً حقاً نظراً لندرتها، فلم نظفر بمراجعتها إلا في مكتبة عامة في فلورنسا، هي مكتبة «لِه أوبلاتِه» Le Oblate.

كما رجعنا أيضاً إلى طبعة فياكّي لرحلة سيغولي، التي امتازت بالتوسّع الكبير في المقدمات والحواشي، وإلى طبعة مانتزي القديمة لرحلة فريسكوبالدي. وأخيراً، قمنا بمراجعة الترجمة الإنكليزية الصادرة في القدس 1948، في مكتبة الجامعة الأميركيّة في بيروت، ومزيّتها أنها جمعت بين نصوص رحلات الرفاق الفلورنسيين الثلاثة: فريسكوبالدي، سيغولي، غوتشي.

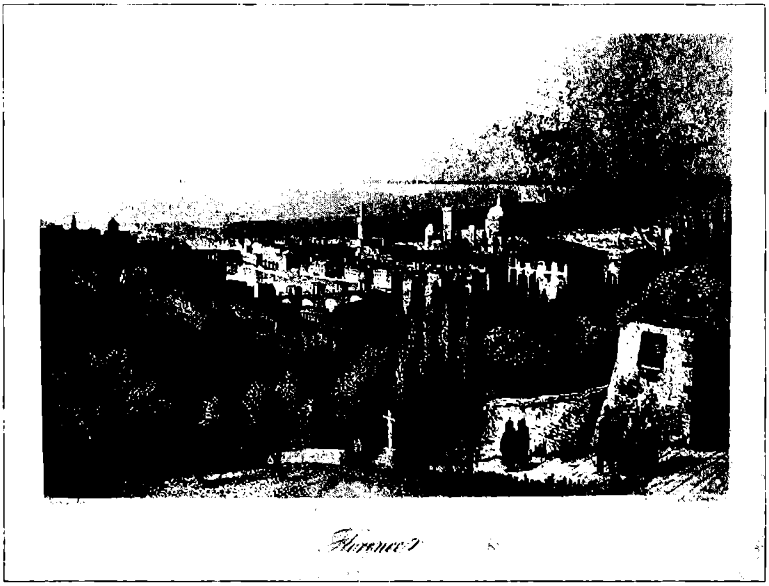
وزيادة في قيمة الكتاب، قمنا بإضافة صور قديمة ونادرة إليه. وكم تمنّينا العثور على رسوم شخصيّة لرحّالينا، لكن للأسف لا وجود لها.

* * *

أخيراً، لا يبقى علينا هنا إلا أن نعد القارئ الكريم بمتابعة هذا العمل بنشر الرحلة الثالثة، نعني رحلة جورجو غوتشي. والواقع أننا فرغنا من ترجمتها مؤخراً وسنصدرها ضمن هذه السلسلة، التي توليها هيئة أبوظبي للثقافة والتراث مزيد العناية والاهتمام، فلهذه الهيئة الكريمة وافر شكرنا وامتناننا.

ولله الحمد على ما وفّق وأعان.

بيروت، 17 أبريل 2010 — **د. أحمد إيبش**



مدينة فلورنسا ، نُقيشة قديمة من القرن التاسع عشر





تشيزَرِه آنجيليني في منزله (إلى اليمين) ، ورسم له عند تقاعده (اليسار)


L. FRESCOBALDI - S. SIGOLI

VIAGGI
IN TERRASANTA

A CURA DI
CESARE ANGELINI

FIRENZE
FELICE LE MONNIER
1944

نموذج لطبعة آنجيليني – فلورنسا 1944

bisogno, e non vi chiederanno niente di vettura, e mai non vi mancherà da vivere; e di ciò che io vi dico per chiarezza di voi io vi voglio entrare vostra mallevadore —. Andarono questi frati, e tornarono adrieto, e trovarono com'era stato detto loro, e da indi in qua sempre vi sono stati, e appresso hanno sempre avuto di quello ch'è stato loro di bisogno alla vita loro. Così preghiamo Iddio che ci dia grazia che noi abbiamo in questo misero mondo quello che ci fa bisogno, e nell'ora della fine nostra per la sua pietà e misericordia, e per la sua santissima passione che sostenne in sul legno della santa croce per ricomperarci del sangue ch'egli sparse per noi miseri peccatori ci doni la gloria di vita eterna.

Compiuto di scrivere martedì a dì 4 d'ottobre 1390 il dì di santo Francesco benedetto, e Dio ne sia lodato, amen.

QUI FINISCE
IL VIAGGIO DI SIMONE SIGOLI.

نموذج لطبعة آنجيليني - الصفحة الأخيرة

VIAGGIO

di

Lionardo di Niccolò Frescobaldi

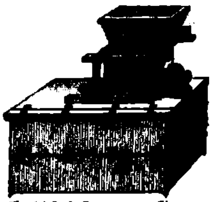
Fiorentino

IN EGITTO E IN TERRA SANTA

Con un discorso dell'Editore

sopra il Commercio degl'Italiani

nel Secolo XIV.



Il più bel fior ne coglie.

ROMA MDCCCXVIII.

Nella Stamperia di Carlo Mordacchini

Con Licenza de' Superiori.

نموذج لطبعة مانتزي - روما 1818

VIAGGIO
AL MONTE SINAI
DI
SIMONE SIGOLI

TESTO DI LINGUA

CITATO NEL VOCABOLARIO

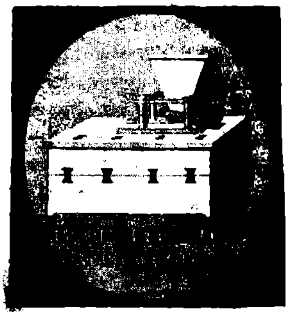
[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]



FIRENZE

DALLA TIPOGRAFIA ALL' INSEGNA DI DANTE

1829.

نموذج لطبعة فياكّي - فلورنسا 1829

رحلة إلى الأراضي المقدسة

مصر: الإسكندرية - القاهرة - جبل سيناء

فلسطين: القدس - الخليل - الجليل

سوريا: دمشق - صيدنايا

لبنان: بيروت

ليوناردو فريسكوبالدي
وسيمونِه سيغولي
سنة 1384 م

عام 1384، قام ثلاثة عشر رجلاً من توسكانا برحلة إلى الأرض المقدسة، وعند عودتهم دوّن ثلاثة منهم كتباً منفصلة، وهم فريسكوبالدي وغوتشي وسيغولي. ورجع من مجموعة الرحّالين عشرة رجال.

فمن هم هؤلاء الرجال الثلاثة عشر؟

1- ليوناردو فريسكوبالدي: ابن نيكّولو، وهو الأول على اللائحة، ليس فقط لكونه الأكبر سناً (ما عدا شخصاً واحداً) ولكن لكونه الأرفع شأناً، فهو من الشخصيات البارزة وابن عائلة فلورنسية نبيلة قدّمت للعالم شاعرين: دينو دي لامبِرتوتشو Dino di Lambertuccio الذي اشتهر في القرن الثالث عشر، وماتّيو دي دينو Matteo di Dino الذي اشتهر في القرن الرابع عشر.

حمل ليوناردو في شبابه السلاح وخاض معارك عدة، وهو يخبرنا نفسه بأنه اشترك في سبع حروب قبل عام 1384. وهو أب لستة أطفال، منهم ولد عمره 10 سنوات وآخر في طريقه إلى الولادة. عندما كان سفيراً في مدينة آريتسو Arezzo القريبة من فلورنسا، أنجز مهمته مع جورجو غوتشي Giorgio Gucci وغويدو دي تومازو دي نيري Guido di Tommaso de Neri حاجاً إلى الأراضي المقدسة. ولكن عندما تخلّف غويدو Guido عن الرحلة حلّ مكانه آندريا رينوتشيني Andrea Rinuccini الذي صحبه إلى ڤينيسيا والتقى بالآخرين وذهب معهم.

عند عودته من رحلته في عام 1385، أصبح ليوناردو محافظاً لمدينة كاستيلّو Città di Castello، وفي عام 1390 حكم مدينة مونتِه پولتشانو Montepulciano لصالح جمهوريّة فلورنسا في أيّام آل آلبيتسي Albizzi منافسي آل ميديتشي. وفي عام 1398 أصبح سفير البابا بونيفاتشو التاسع، وبين عامي 1405-1406 خاض حرباً ضد مدينة پيزا Pisa عقب حصارها. ومع أنه كان حاد الطباع، فقد كان رجلاً تقياً تأثر بروح النسّاك التابعين للقديس أغوستينو في بورغو سانتو سپيريتو Borgo S. Spirito . وقبل سفره للأرض المقدسة زار مدناً عديدة في إيطاليا مثل روما وأنكونا وڤينيسيا ورافينّا وبحيرة غاردا وبحيرة پييه دي لوغو Piè di Lugo ولقد ذكر تلك الأماكن عند كتابته عن الأماكن ما وراء البحار.

2- كان يتبع الأول خادمه آندريا دي پيشا Andrea di Pescia المسمى نسبة إلى البلدة الصغيرة التي تقع بين فلورنسا ولوكّا.

3- آندريا دي ميسّر فرانشيسكو رينوتشيني Andrea di Messer Francesco Rinuccini الذي توفي في دمشق في 29 ديسمبر. وعام 1381 ظهر اسمه في سجل نقابة الفنون العليا في منطقة سانتا كروتشِه S. Croce. خلال حجّه استقبل الفرنسيسكان من القدس وبيت لحم، واستضافهم على العشاء وأقام الطقوس والقدّاس في ليلة ذكرى إحياء اسمه على روح والده.

4-5- كان يتبعه خادمان: بييترو وكريستوفر.

6- جورجو غوتشي Giorgio Gucci وهو من عامة الناس. كان والده مستشاراً قانونياً وسفير محافظة وواحداً من «القديسين الثمانية» في حرب عام 1378، ولقد أطلق عليه لقب «الأكثر ولاء» للمدينة المقدسة.

اعتبر غوتشي في 1379 من وجهاء فلورنسا وعام 1383 السنة التي سبقت حجه إلى الأرض المقدسة أصبح سفيراً في روما، وكان في روما آنذاك احتجاج على الأسقف آنيولو ريكاسولي Agnolo Ricasoli، فتولى غوتشي القضية بصورة جيدة فعيّن ريكاسولي أسقفاً لمدينة فايينتسا Faenza. ولم يبتعد في رحلاته أكثر من روما ومدن توسكانا مثل فيزولِه وپراتو. وعند عودته كان ممن ضَمِن الدَّين بين پييروتشو ماليپييري Pieruccio Malipieri والفارس بِلترامو Beltramo لمبلغ من المال يقدر بـ 1000 دوقية.

7- كان يتبعه خادمه بييترو تيديسكو[1] Pietro Tedesco .

8- سيمونِه سيغولي: ابن جنتيلِه Gentile، من عائلة عريقة ونبيلة.

يحمل شعار عائلته رسم مناجل زراعية ثلاثة فضية قبضتها من الذهب على حقل أزرق[2]. ويظهر اسم سيمونِه في سجل فلورنسا مرة واحدة كشاهد لشخص يدعى جيريو ياكوبي Gerio Jacobi في منطقة S. Niccolò عام 1365. لا يبدو أنه حصل على مناصب حكومية لا هو ولا والده، أو على الأقل لم يُذكر حول ذلك شيء. له ابنة تسمى كاترينا، وعند رحلته إلى الشرق كان معه خادمه آندريا رينوتشيني Andrea Rinuccini .

9- سانتي دل ريتشو Santi del Riccio، وهو تاجر نبيذ وابن عائلة شهيرة.

(1) معنى اسم «تيديسكو» بالإيطالية: الألماني.

(2) يرد رسم هذا الشعار أدناه، في آخر مقدمة فرانشيسكو پودجي، ص 39.

10- كان معه خادمه بطرس الملقب بالبولونيينو، وقد توفاه الله في دمشق في 16 يناير من عام 1385.

11- أنطونيو مَيْ Antonio Mei ابن پاولو. ناسج صوف، يظهر في سجل فلورنسا عام 1381 في (مجلس الشعب لانتخاب القضاة) كممثل عن النقابة في منطقة سانتو سپيريتو S. Spirito.

12- كان معه خادمه نيكولاو Nicolao من فلورنسا.

13- بارتولوميو راهب الكازِنتينو Casentino، أو كاستيل فوكونيانو Castel Focognano، توفي قبيل الإبحار ودفن في مودونا.

* * *

مراحل الرّحلة

1384	12 – 13 أغسطس	مغادرة فلورنسا
	4 سبتمبر	الإبحار إلى ڤينيسيا
	27 سبتمبر	الوصول إلى الإسكندرية
	5 أكتوبر	الذهاب إلى القاهرة
	19 أكتوبر	الذهاب إلى سيناء
	2 نوفمبر	مغادرة سيناء
	12 نوفمبر	الوصول إلى غزّة
	19 نوفمبر	مغادرة الخليل
	21 نوفمبر	الوصول إلى بيت لحم
	22 نوفمبر	الوصول إلى القدس
	26 نوفمبر	السفر إلى نهر الأردن
	28 نوفمبر	السفر إلى طولكرم
	2 ديسمبر	السفر إلى الجليل
	9 ديسمبر	الوصول إلى دمشق
	29 ديسمبر	وفاة آندريا رينوتشيني
1385	15 يناير	وفاة پييترو Pietro di Cione
	20 يناير	السفر إلى بيروت (البعض)
	10 مارس	سفر الجميع إلى بيروت

10 إبريل	ركوب السفينة إلى إيطاليا
21 مايو	الوصول إلى ڤينيسا
31 مايو	الوصول إلى فلورنسا

* * *

الفترة التاريخية للرحلة

عندما قام هؤلاء الإيطاليون من توسكانا برحلتهم كانت أوروپا مقسمة إلى دويلات، وحدث ذلك قبل 6 سنوات. حاولت القديسة كاترينا من سيينا بذل جهود كبيرة لجمع الشمل تحت لواء كنيسة واحدة دون جدوى. ففي عام 1384 كان هناك اثنان من الباباوات وهما: أوربانو السادس في روما، وكليمنت Clemente السابع في آڤينيون، وكانت فلورنسا تخضع للبابا الشرعي أوربان السادس. أما في الشرق فكان يحكم السلطان المملوكي الملك الظاهر سيف الدين برقوق[1]، الذي تمكّن من خلال حنكته وقدرته من الاستيلاء على العرش، وأسّس سلالة حاكمة جديدة تدعى المماليك البرجيّة Burji، ولقد زار الحجّاج أصحاب العرش في الإسكندرية وفي غزة ودمشق.

أما وضع الأوروپيين هناك فلم يكونوا يحسدون عليه، ذلك أن المنطقة تعرضت لمدة 13 سنة لهجومات عديدة واقتُرفت بحق السكان أعمال شنيعة، وخاصة مدينة الإسكندرية، ونعني بذلك الصليبيين الفرنج، لذلك اعتُمدت إجراءات مشددة تجاه جميع الغرباء من الأجانب الفرنج. ومن جهة أخرى كان الغرب ما زال يطمع في وضع يديه على الأرض المقدسة، وكانت هناك في سبيل ذلك محاولات عدّة باءت بالفشل.

* * *

(1) الملك الظاهر سيف الدين برقوق مؤسس دولة المماليك الجراكسة البرجيّة، تولى السلطنة ما بين 784-791هـ، ثم عام 792 حتى وفاته 801 هـ فخلفه ابنه السلطان الناصر فرج وكان ابن 11 سنة. كان من أقوى سلاطين الدولة البرجيّة، لم يجسر تيمورلنك على اجتياح المشرق الإسلامي في أيامه، ثم تمكن من ذلك بعد وفاته بعامين (803 هـ = 1400 م).

مع ذلك، فالبلاد التي زاروها كانت تنعم بالسلام، وكانت الطرق سهلة العبور حتى بالنسبة للأجانب، وتكلفة المعيشة زهيدة، وتمتّع المسيحيون - وهم أقلية بالنسبة للأغلبية المسلمة - بتسامح طالما استطاعوا دفع مبلغ معين (عدا عن بعض أعمال التعصّب المنفردة).. لذلك فقد كان الحجّاج يؤمّون الأراضي المقدسة في فلسطين وزيارة الضريح المقدس. وفي العام نفسه أي 1384، في 9 يوليو قام شخص يدعى پيرو ڤِندرامو Piero Vendramo وهو حاج، بترك أثر يده المضرّجة بالدم مطبوعة على باب الصرح المقدس، وهي ما زالت واضحة للعيان حتى يومنا هذا.

أما الطقوس المسيحية الأساسية فكانت تقام في المراكز الرئيسية مثل القدس والإسكندرية والقاهرة ودمشق وبعض القرى المسيحية الأصل مثل بيت جالا، وفي عدد من الأبرشيات وعددها أقل بالنسبة إلى الزمن الذي زار فيه الرحّالة پودجيبونصي[1] Poggibonsi قبل 35 سنة خلت. والآن بدلاً من اللاتين يمكث الفرنسيسكان في جبل صهيون وبيت لحم وبيروت.

* * *

(1) نيكّولو دا پودجيبونصي Fra Niccolò da Poggibonsi راهب قام برحلة حج إلى المشرق دامت خمسة أعوام بين 1346-1350، ودوّن أحداثها في كتاب شائق بعنوان: *Libro d'Oltramare* «كتاب ما وراء البحار»، نشرته مطبعة الآباء الفرنسيسكان في القدس عام 1945. سوف أقوم بترجمته في وقت لاحق إن شاء الله.

العملة المتداولة في ذلك الزمان:

1 بيزنطي ذهبي = 1 فلورينو أو دوقية 1/ 4 پيكّا Pecca .
1 درهم فضي = 1 grosso ڤينيسي فضّي.
1 درهم = 90 فولر Foller في القاهرة 30-40 في أماكن أخرى.
1 درهم = 2/ 41 فلوريني.

ملاحظات حول العمل:

عند اجتماع أعضاء مكتبة أكاديميا دلاّ كروسكا Accademia Della Crusca وهي أكاديمية عريقة في فلورنسا أسست عام 1583، أراد الأعضاء تنقية اللغة من الشوائب الأجنبية الدخيلة عليها وإغنائها بكلمات جديدة أخرى. فعلى ذلك جرى انتقاء 53 كلمة من أصل 140 لإدخالها إلى اللغة الإيطالية، وكلها من نصوص «العصر الذهبي»، وذلك لتبسيط الأسلوب وإدخال قصص أدبية هامّة. ولكن أصحاب العقيدة الدينية رفضوا أكثر هذه القصص على أنها مجرد مرويّات وأساطير لا تمتّ إلى الدين بشيء. ولقد خضعت المعلومات للفحص الدقيق.

وكتاب سيغولي عن مصر والقاهرة يستحق التحليل(1)، وفيه معلومات جديدة لمن يدرس تاريخ المنطقة، فقد ذكر لنا عدد الكنائس التي زارها، وهي كثيرة بالنسبة إلى ما تركه لنا حجّاج آخرون، ويعطي صورة واضحة للمسيحية في ذلك الوقت، ونظرته صادقة وشخصية. وهناك كنائس ذكرت للمرة الأولى ككنيسة القديس يوسف San Giuseppe في بيت لحم.

* * *

(1) بعد هذه النشرة لكتابي فريسكوبالدي وسيغولي، سوف نقوم بنشر كتاب رفيقهما الثالث جورجو غوتشي، استكمالاً للصورة. وقد أنهينا ترجمته مؤخراً.

وهذه لائحة بأسماء المذاهب الدينية المسيحية الواردة في النصوص:

- الأحباش Abyssini .
- النساطرة Nestoriani أو Astoriani .
- الهنود الفرس Persiani Indiani أو Alaphisi .
- الأرمن.
- الرهبان Monks .
- الأثيوبيون أو مسيحيو أثيوبيا Ethiopi .
- الفرنج أو اللاتين.
- الجورجيون Giorgiani .
- مسيحيو الزنّار Cristiani della Cintura .
- الإغريق من المذهب الإغريقي.
- الإيبيريون.
- الهنود أو مسيحيو الهند.
- اليعاقبة Giacobiti .
- اللاتين أو الفرنسيسكان.
- النساطرة Nestoriani .
- النوبيون Nubiani .
- الأورثوذوكس.
- الرهبان السّريان.
- الراهبات السّريان.

* * *

محاضرة لويدجي فياكّي

حول هذه الرحلات

ألقيت دراسة لويدجي فياكّي حول رحلة سيمونِه سيغولي كمحاضرة في أكاديمية لا كروسكا La Crusca في فلورنسا في العاشر من أغسطس 1819:

إن التعطش لإغناء الروح بالمعرفة في وقت تعذرت فيه المواصلات بين الشعوب، حيث كان السفر فيه يحتاج إلى جهد ووقت ومال، دعا بعض العلماء من أمثال سولون وطاليس وفيثاغورس وعدد آخر من العظماء إلى نقل فلسفة وعلوم الإغريق إلى العالم. لذلك فنحن اليوم ندين إليهم بالكثير مما نعرف.

ومع اتساع رقعة الإمبراطورية الرومانية توثقت العلاقات بين الشعوب التي لم تكن معروفة آنذاك، ولم يمنع طلب العلم الفلاسفة الكبار الإغريق من السفر إلى مصر بحثاً عن المعرفة. وكذلك لم يمنع المفكرون الرومان من الوصول إلى أثينا للاستفادة من علومها.

وفي العصور اللاحقة استدعي اكتشاف أراض جغرافية جديدة تحرك عدد من الرحالين الشهيرين دفعهم الأمل لإغناء التاريخ بما هو جديد وبعلم ينفع البشرية جمعاء. إن حصرهم في تلك المحاضرة أمرٌ صعب، لكني أذكر هنا زميلنا الكونت بالديلّي Baldelli الذي كتب مقدمة كتاب «المليون» لماركو پولو.

كذلك كان الدين المسيحي يجد مسوغاً للسفر، فلقد زار الأراضي المقدسة عدد كبير من المؤمنين الذين سجلوا ما رأوا وشجعوا آخرين على السفر، بغية الحصول على البركة والتوبة. ولقد كان لبلدنا من ذلك أيضاً نصيب.

وبالإضافة إلى الكسب الروحي، كانت هناك منفعة تجارية ومعرفة بالأمكنة والسكان والحيوانات والمنتجات الموجودة على تلك الأرض. هذا ولقد أغنت الزخارف الموجودة على الصّروح الدينية العالم، وأضافت معلومات جديدة فيما يتعلق بالفنون الجميلة.

وللرحلات التي قامت في القرن الرابع عشر طعم آخر، وهو موضوع محاضرتنا اليوم ولقد كان يطلق عليه اسم «القرن الطيب» فلقد دخل عدد كبير من الكلمات قاموس لغتنا وأخص بالذكر الرحالة الثلاثة وهم: ليوناردو فريسكوبالدي، وسيمونِه سيغولي، وجورجو غوتشي:

Lionardo Frescobaldi, Simone Sigoli, Giorgio Gucci.

ولقد أعاد نسخ الرحلات السيد غوليلمو مانتزي Guglielmo Manzi من روما، ولقد منحته مكتبة باربيريني Barberini في فلورنسا حقوق طباعة نصّ فريسكوبالدي. ولقد وجد السيد مانتزي أنه لا ضرورة لكتابة مقدمة المحرّر أو الناشر كي لا يخضع النص الأصلي لمزاج الناشر ولطريقة فهمه وتأويلاته.

كما أن هناك بعض الكلمات وردت في النص الأصلي ولم يكن هناك ما يقابلها في القاموس الإيطالي، لذلك وقع اختلاف وتضارب بين فهم النص الأصلي ونص آخر صُحِّح بحسب المفهوم الحديث السائد. فمثلاً وردت كلمة في نص روماني لفريسكوبالدي عند تكلمه عن ملابس المسلمين يقول فيه: يضعون على رؤوسهم قبعات لف حولها Melma بيضاء ربطت على الطريقة الإسلامية بلينو أو كتان.

ولقد كان في فلورنسا آنذاك ما يُعرف بالمللينا Mellina أو Melina.. وحسب القاموس فإن كلمة Melma تعني الأرض الموحلة في قاع المستنقعات والأنهر التي إن دستها بقدمك لم تصمد. ولا يوجد في قاموسنا معنى آخر، ومن المضحك تخيّل قبعات المسلمين وقد لُفّ عليها طين النيل. وأما كلمة Melina فتختلف اختلافاً جذرياً وهي اسم مدينة في الفياندر Melines.

ففي الحجم الثالث (وهناك 10 أحجام) لـ Pagnini يُذكر طريقة صنع القماش في الفياندر، وكتب النص فرانتشيسكو بالدوتشي پيغولوتي Francesco Balducci Pegolotti ويقرأ: «إن معرض الـ Melline في الفياندر يبدأ في احتفال يوم ذكرى القديس ريمي Remi». (صفحة 241). ولقد جرت العادة فيما مضى وحتى يومنا هذا إطلاق اسم المنتوجات على المكان الذي صنعت فيه. كما ورد في الصفحة 87 من نص الرحلة «إن قمحهم كبير وقاسٍ» وبالإيطالية:

«i loro gambi del grano sono grossissimi e nespi».

وكلمة (nespi) لا تعني شيئاً في قاموس اللغة الإيطالية، والنسخة المخطوطة في مكتبة باربيريني تقول إنّ nespi تعني قوي. وأريد أن أعرف من أين أتـي بتلك الصفة، أما نسخة ريكاسولي فتنصّ: «إن قمحهم كبير وسنابله ضخمة». فهل كلمة nespi تعني السنابل؟

إن مهمة ناقل النص صعبة ولا بد أنه كان في حالة نعاس عند كتابته. وهناك في الصفحة رقم 85 ذكر للموز الذي يشبه الخيار وعند قطعه تظهر إشارة الصليب فيه، وهي الفاكهة التي غوت سيدنا آدم. أما أوراق الموز فهي كالـ ellera ولكنها أطول.. وفي النسخة الفلورنسية جاءت كلمة ella وكذلك في كتاب سيغولي، أما في نسخة باربيريني فتتغير الكلمة إلى ellera، والفاكهة التي يتحدث عنها فريسكوبالدي اسمها: موزا پاراديزياكا Musa Paradisiaca، أو La Musa Sapientum في اللاتينية، ويسميها علماء النبات تين آدم، والفرنسيون يطلقون عليها اسم Bananier.

وكلمة Ella هي Enula الجبلية من فئة البهارات التي يستخدم جذرها، أما أوراقها فتشبه أوراق الـ Musa ولكنها أصغر وفيها وبر وشعيرات ويدعوها علماء النبات Inula Helenium. تلك الأمثلة التي ذكرتُها تدل على مدى اختلاف الطبعة الرومانية عن الطبعة الفلورنسية، وما حصل قد حصل، ومع ذلك فإن طبعة السيد مانتزي ما تزال تستحق الاحترام.

ومع احتمال حصول أخطاء في العمل فإن إعادة طبعها أمر طيّب عوضاً عن تركها عرضة للغبار على رفوف المكتبات القديمة. فضلاً عن أن معرفة لغة العصر القديم وطريقة استعمالها أمر شاق وصعب، فهناك مصطلحات كانت تستخدم في الماضي وفي مكان دون آخر يتعذر على الشخص الحديث معرفتها مهما بلغ علمه. وفي العصور التي تلت سنة 1300 م، تغيرت فيها اللغة وطريقة التعبير، وما كان جديراً بالاهتمام ويعتبر حدثاً عظيماً صار عادياً وغير مثير للدهشة. وما كان خرافياً أصبح واقعياً.

وكل كوميديا القرن السادس عشر ظهرت على الملأ ونشرت على أنها من اللغة الإيطالية، وما هي إلاّ لهجات شعبية وتعابير فلورنسية. وهناك أخطاء في القواعد شملت أيضاً الكتاب الرائع الذي دوّنه بوكاتشو Boccaccio والمسمى «ديكاميرون» *Decameron*، فاللغة يجب أن تأخذ بعين الاعتبار العصر الذي كتبت فيه، وهي لا تخضع لمعايير اللغة الحديثة.

إن الحديث عن اللغة وعن السفر يطول ولكننا نجزم بأن الرحلات التي كانت تنطلق من ڤينيسيا كانت قديمة جداً، فقبل أن يكتشف البرتغاليون رأس الرجاء الصالح، كان السفر إلى الشرق والتجارة حكراً على الڤينيسيين الذين كانوا ينقلون البضائع عبر البحر الأحمر وحتى الإسكندرية. ومن ڤينيسيا كانت هذه البضائع تنطلق إلى كل أنحاء أوروبا، فڤينيسيا هي المكان الأفضل لكل من أراد الوصول إلى أراضي ما وراء البحار. وجرت عادة الحجّاج أن يؤموا ذلك المكان، وفي بعض الأحيان ترى عدد الفلورنسيين في ڤينيسيا يضاهي عدد الڤينيسيين من التجار والمسافرين، ولقد التقى هنا الفلورنسيون الثلاثة أيضاً وهم أبطال رحلتنا هذه إلى الأراضي المقدسة.

* * *



شاعر عصر النهضة الإيطالي الشهير جوڤانّي بوكاتشو
Giovanni Boccaccio (1313-1375 م)
مؤلف كتاب «ديكاميرون» و «عن النساء الشهيرات» وغيرهما

دراسة

بعض من رحلات ما وراء البحار في القرن الرابع عشر

وبشكل خاص رحلة سيمونِه سيغولي

بقلم: فرانشيسكو پودجي

Francesco Poggi

إن سرد فريسكوبالدي يطابق وصف سيغولي، فيما عدا بعض الفروق الطفيفة التي تعود إلى ضعف الذاكرة أو خطأ الناقل. ففي بعض الأحيان يذكر سيغولي أنه مكث في مكان ثلاثة أيام بينما يقول فريسكوبالدي بأنه مكث ستة. ويقول الأول بأنه ترك بيروت في أبريل والثاني يقول في مايو. يقول الأول بأن ربان السفينة التي أخذوها من ڤينيسيا يدعى نيكّولو پولو ويقول الآخر إن اسم المركب پولا وصاحبها يدعى لورنزو موروزيني. كما أن طريقة سلوك أحدهم تختلف عن الآخر.

وعندما يصل فريسكوبالدي إلى مكان يصفه بكامله، وكل ما يتعلق بالأحوال المدنية والدينية وينتبه للقوانين القديمة ولاختلافها مع الجديدة. أما سيغولي فكأنما قسم حكايته قسمين: الأول يتحدث عن المادي والثاني عن الرّوحاني. الأول يتحدث عن الأزياء والعادات، والآخر يذكر فيه جميع الكنائس والأماكن المقدسة التي زارها. ولكنه لم يخطئ فتلك هي طريقته البساطة والنقاء، وهذا ما يميز هذا «القرن الطيب».

أما نصّ غوتشي فهو بالمقارنة مع فريسكوبالدي ليس سرداً للأحداث، وإنما تذكير بتواريخ ونقاط، ولكنها تستحق أن تسلط الأضواء عليها أيضاً. أما نص السيد مانتزي فيذكر فيه أخبار بعض الرحالين من حجّاج عام 1384 وخاصة المتعلقة بفريسكوبالدي وغوتشي ولكنه لا يذكر على الإطلاق آندريا رينوتشيني Andrea Rinuccini، بل يقول إنه لم يعثر على مذكراته، ولا يذكر سيغولي على الإطلاق والحجّاج الآخرين.

وعن غوتشي يقول بأنه عام 1379 انتخب كواحد من أعوان مدينة فلورنسا. فبعد احتجاج ضد الأسقف ريكاسولي استطاع غوتشي وكان سفيراً أن يحوله أسقفاً في مدينة فايينتسا. أما حول عائلة سيغولي فهناك أمور كثيرة ذُكرت تمجد تلك العائلة النبيلة من مدينة فلورنسا التي حصلت على مراكز ومناصب مميزة عديدة. ويعود ذكرها إلى عام 1108 حيث تبرعت العائلة بقطعة أرض لكنيسة سانتا ماريّا نوڤيلاّ Santa Maria Novella، وكانت قطعة الأرض ملكية وليست سكنية فلقد سكنت العائلة في سانتا فيليتشيتا S. Felicità وفي سانتو نيكّولو أولترانو S. Niccolò Oltrano. ويذكر في عام 1171 في عقد بيع لدير الكنيسة نفسها S. M. Novella كشاهد Jacopino di Ubaldino Sigoli ولم يذكر له أي سلف أو أجيال لاحقة.

ومن الصعب الوصول إلى شجرة العائلة ومعرفة جميع أفرادها وكل ما وصل إلينا هو عام 1267 اسم لاپو سيغولي Lapo Sigoli كقاض مناوئ لجهة Ghibellina (ولقد كانت في فلورنسا تتنافس عائلتان هما: غيبيلّيني i Ghibellini وغِلفي i Guelfi)[1].

* * *

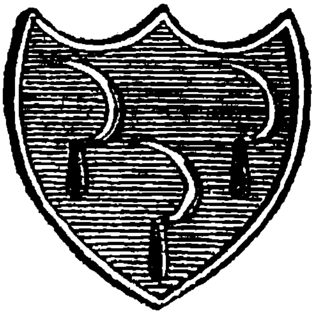
(1) نتيجة لقتال بين آل Ghibellini و Guelfi، طرد آل Guelfi من فلورنسا من عام 1260 وحتى 1266. ومن الأماكن التي تعرضت للهجوم والتخريب في منطقة أولترانو Oltrano قسم من منزل Casa in populo S. Felicitatis in burgo de Plaza Dom. Lapi Siguli iii via.

هذا ويظهر اسم ياكوپِه Jacope الراهب الدومينيكانـي، وهو واحد من أبناء ميكيلِه Michele. ولقد أُعطي هذا الراهب وسام الاستقامة والشرف كواعظ محترم، وحصل على مراتب عسكرية أخرى، وكان مربياً مثالياً في الأمور الأخلاقية والعلمية. دخلت اثنتان من بناته الأربع دير ريپولي Ripoli الشهير كدار للطباعة في القدم. والراهبتان هما الأخت لاپا Lapa والأخت ياكوپا Jacopa . أما أولاده الذكور فلم تصلنا أخبارهم.

بعد ذلك، لا يُذكر أي فرع من عائلة Sigoli يعيش في سانتا فيليتشيتا أما في سانتو نيكّولو فهناك ذكر لجينو سيغولي Gino Sigoli عام 1280، وكان شاهداً على معاهدة الصلح بين عائلتي غيبيلّيني وغِلفي. أما سيمونِه سيغولي فهو سليل آرّيغو سيغولي Arrigo Sigoli، الذي لا نعرف بالتحديد من هو أبوه. وهذه هي شجرة عائلة سيغولي:

أعقب آرّيغو: بونسو Bonso (أو بونسينيورِه Bonsignore)، وبارتولو Bartolo، وپريورِه Priore. ومن بونسو: جنتيلِه Gentile، جيري Geri، نيكّولو Niccolò، تِديتشِه Tedice، لوتو Lotto. ومن جنتيلِه سيمونِه، وابنته كاترينا Caterina. وأعقب پريورِه: ليزا Lisa، نيكّولو Niccolò، جوڤانـّي Giovanni.

وهذا هو شعارهم:



ثلاثة مناجل فضيّة مقابضها من الذهب على حقل أزرق.

* * *

من مقدمة بِلّارمينو باغاتّـي

Fr. Bellarmino Bagatti

إن نظرة سريعة على السنوات 1384 و 1347-1349 فيما يتعلق بما نقله الفلورنسيون تبيّن بأن الكنائس تراجعت كثيراً، وقلّ عدد الرهبان، وهناك بعض الكنائس التي اختفت من حيّز الوجود ككنيسة القديس جيراسيموس Gerasimos وكذلك كنيسة القديس غابرييل Gabriel في الناصرة، وكذلك في الخليل وفي بريّة القديس يوحنا. وحالة المسيحيين بشكل عام تدهورت نظراً لتقدم الإسلام، فلقد وضع المسلمون أيديهم على بعض منها ككنيسة القديس المخلّص في جبل صهيون St. Salvatore .

زيارة الأماكن المقدسة

لقد عرفنا من الرحالة الفلورنسيين أن الآباء الفرنسيسكان أخذوا على عاتقهم مهمة مرافقة الحجّاج في زيارتهم للأماكن المقدسة، ومن قبر السيد المسيح كانوا يرافقوهم إلى درب الآلام وحتى باب يهوشافاط Josafat. وكانوا يتوقفون في حديقة جَتسِمَني Gethsemane ويصعدون جبل الزيتون لينزلوا إلى قبر أبشالوم Absolom ثم بركة ماء السّلوان Siloe. ثم يصعدون جبل صهيون عبر وادي هنّوم Hinnom. كان السير طويلاً ويحتاج بعض الوقت، لذلك كانت الزيارة تبدأ في الصباح الباكر وهذه هي طريقة الحجّاج. وبعضهم كان يبدأ قبل الفجر طلباً للعبادة والطمأنينة بعيداً عن صخب النهار وعما يمكن أن يصرف تركيز الحجّاج عن الصلاة.

والصلاة كان يقيمها مرافقو الحجّاج ويستمعون إلى اعترافاتهم، وثمّة حجّاج كثيرون قد تناولوا القربان المقدس في مناطق أخرى أيضاً كمصر وڤينيسيا.

أمّا كتّابنا فلقد توقفوا طلباً للغفران في الأراضي المقدسة في كل مكان، ولقد اطلعنا على عادات وأماكن قديمة مثلاً جَتسمَني Gethsemane، والصرح المقدس الذي تهدّم وكان يحتوي نخلة العذراء، وكذلك الحزام الذي أعطي إلى القديس توما، إلخ. ولقد ذكر كل مراحل الحج جميع من ذهب إلى الأراضي المقدسة، حتى قبل أن يقوم الفرنسيسكان بدورهم في قيادة الحج. وهناك بعض الأماكن التي زيدت على حلقة الحج كالمكان الذي استراحت فيه السيدة العذراء مثلاً.

العقلية

كان الحجّاج يحبون التوقف في الأماكن وتسجيلها، وكلما كانت زاخرة بالقصص والأعاجيب والغرائب أحبوا ذكرها أكثر، ذلك أن القصص الاعتيادية لا تحظى بفضول كبير، ولقد رفضت سلطات الأكليروس معظم ما جاء فيها من خرافات وأساطير. وعندما قُدّمت كتابات فريسكوبالدي وسيغولي حذّر الراهب جوزيبه ڤنتشنزو آيرنتي Giuseppe Vincenzo Airenti من مغبّة نشرها قائلاً: «كان يستحسن لو أن كتّاب العصر الذهبي تمتعوا بروح نقد عالية بالإضافة إلى سذاجتهم الدينية وانبهارهم الطفولي. فالدين بحاجة إلى دقة في التفكير وفي النقل». وكذلك دون ميكيلِه Michele وهو من الآباء الـ Salesiani حذّر تلاميذه من قراءة كتاب سيغولي قائلاً: «أهيب بكم ألا تأخذوا كل ما قاله سيغولي مأخذ الجد».

* * *

أما الآن وقد أصبح الذهاب إلى الأراضي المقدسة في متناول الجميع، وبعد دراسة المناطق التاريخية والأثرية دراسة علمية جيدة، أصبحت الوثائق الموجودة في متناول التلاميذ جيدة وموثوقة، وهذا يجعلنا نفكر بأن الذنب لا يقع على عاتق كتّاب «العصر الذهبي»، فعدم توفر المعلومات والبراهين والدراسات التاريخية، التي كانت في مرحلتها البدائية، جعلهم يصدقون كل الأعاجيب التي قبلت وتناقلها الناس دون أن يطلبوا بأي مرجع حقيقي موثق.

***

فيما يتعلق بفريسكوبالدي

هناك طبعة فلورنسية نشرها غارجولّي Gargiolli عام 1862 تختلف عن طبقة مانتزي Manzi الرومانية عام 1818، وفيها عرفنا أن فريسكوبالدي دوّن كتابه بعد عام 1390، ذلك أنّ ڤيسدوميني Visdomini أصبح أسقف فلورنسا. في هذا العام ومن نص فريسكوبالدي يذكر اسم ڤيسدوميني: إن ڤيسدوميني قد طلب بأمر من الملك كارلو أن أبحث لهم عن أراض في ما وراء البحار تجعلهم عند عودتـي يقررون ما هي المرافئ الأصلح لكي يسيطر عليها الجنود، ودراسة الأنهر والأماكن والمواقع التي يسهل فيها التخييم ونشر معسكرات الجيش. وأنا لست ماهراً في تلك الأمور مع أنني خضت معارك عدّة.

ولقد اعتبر بحث فريسكوبالدي «دليلاً للأدب الإيطالي»، فلقد قال الكاتبان باتشي Bacci ودانكونا d'Ancona عنه: «هناك نصوص لحجّاج ذهبوا إلى الأراضي المقدسة فيما وراء البحار طلباً للتعبّد والبحث عن الذخائر المقدسة وطلب الغفران، وهم كفريسكوبالدي يتمتعون بملاحظة حادّة ودقيقة». وهذا ما نشعره بالفعل عندما نقرأ ما كتب عند وصوله للإسكندرية، فهو يتحدث عن «أراض للتخييم»، وعن القدس يقول بأنها ليست مسوّرة من جهة الشرق، ويمكن الاستيلاء عليها بالقتال الحر وجهاً لوجه.

وعن صفد يقول: هي قلعة كبيرة مسوّرة تشرف على جميع المقاطعات المحيطة كطبرية والجليل وجزء من سوريا وحتى عكا، لأنها القلعة الوحيدة في تلك المنطقة.

وعن دمشق يقول: إن المدينة مسوّرة ولكنها خالية من الحاميات إلا من بعض الأماكن. وعن بيروت يقول: هناك قلعة مسوّرة بشكل جيد يضع فيها السلطان عدداً كبيراً من الجنود والحرّاس.. ومع أن القلعة ليست متينة فلا يستطيع رجال عاديون من جنودنا أخذها بقتال عادي بل بقتال مسلح. هذا فيما يتعلق باستراتيجية فريسكوبالدي. وما لم يذكره بشكل وافٍ هو أن المسلمين في تلك المناطق كانوا شديدي الانتباه والحذر من أي محاولة مسحلة من قبل الغرباء. فبمجرد اشتباههم يطلبون من الترجمان أن يقول للأشخاص بترك البلاد في الحال...

سيغولي

لقد قوبل كتاب سيغولي الذي نشر عام 1390 بعد 5 سنوات من رجوعه بإقبال شديد، ولكن وصفه للأماكن المقدسة كان قليلاً، وكل ما فعله هو ذكر الأماكن والتنويه عنها. أمّا أسلوبه فقد كان هزيلاً ولم يضاهِ أسلوب فريسكوبالدي الغني والأنيق والسلس في السّرد. ومع ذلك فيعتبر سيغولي من كتّاب «العصر الذهبي»، وكانت اللغة الإيطالية قد بدأت بالخروج من مرحلتها الطفولية، ولقد أشاد به بعض النقاد وأما الناشر فراكادوري Fraccadori فلقد قدّمه إلى قرّائه على أنه ذو أسلوب بسيط وأنيق زوّدنا بمعلومات مفصلة عن الأماكن المقدسة وأعطانا صورة جيدة عن تاريخ بعض الملوك، فلولا حديثه عن سلطان مصر لما كان لنا أن نعرف عنه شيئاً، وحديثه مع الراهب جوڤاني دي كانديا Fra Giovanni di Candia جعلنا نعرف عقلية رهبان تلك الفترة، خاصة فيما يتعلق بالقدس.

الجمع بين الكاتبين فريسكوبالدي وسيغولي

إنّ المعلومات التي حصل عليها الاثنان متشابهة، فهي تستند إلى الإنجيل وإلى الدليل إلى الأماكن المقدسة، ومن الترجمان، ومن سيمونِه دي كانديا Simone di Candia في مصر، ومن جوڤانّـي دي كانديا Giovanni di Candia في سيناء، ومن علي «الذي خانهم»، ومن التجار الفلورنسيين، ومن نساء تقيّات في صيدنايا قرب دمشق.

لذلك فهناك تشابه في النصين، وخاصة عندما يتعلق الأمر بالمقارنة مع فلورنسا أو Prato أو Pistoia وهي مدن توسكانية قرب فلورنسا عاشوا فيها. لذلك فيشبهون النزول من بيت لحم إلى حقل الرعي ومن باب القديس اسطفان إلى جَتسِمَني Gethsemane بالنزول من S. Miniato إلى فلورنسا أو من Fiesole وشكل كنيسة التجلّي Anastasias المدور الذي يشبه كنيسة S. Maria Novella في فلورنسا.

هنا الآن سؤال: من ألّف كتابه قبل الآخر؟ وهل نقل واحد عن الآخر؟ ما نعرفه هو أن سيغولي قد أنهى كتابه في 4 أكتوبر 1390، أي بعد 5 سنوات من رجوعه. ومع ذلك فهناك فرق بين طريقة كتابة فريسكوبالدي الذي لا تهمّه أحداث الخدم مثلاً. فيذكر موت پييترو Pietro المسمى بولونيينو Bolognino بشكل مقتضب، ولكن سيغولي يقول Pietro di Cione الملقب بالـ Bolognino عاش في حي الصبّاغين Corso dei Tintori وتوفي يوم الخامس عشر من يناير، وهو يوم ذكرى القديس الأباتـي ماورو Mauro Abate، فكأن سيغولي كان يسد الثغرات التي تركها فريسكوبالدي.

* * *

"Collezione in ventiquattresimo"

FRESCOBALDI (L.), SIGOLI (S.)
ليوناردو فريسكوبالدي - سيمونِه سيغولي

VIAGGI IN TERRASANTA
رحلات في الأرض المقدسة

A cura di Cesare Angelini
بعناية
تشيزَرِه آنجيليني

Felice Le Monnier
Tipografia "Enrico Ariani"
دار نشر فيليتشه لو مونييه
فلورنسا 1944

توطئـة

بقلم تشيزَرِه آنجيليني

قرّرتُ - إذا كان للمرء أن يقرّر - أن أمضي أعوامي الأخيرة في الأراضي المقدّسة، فلقد اشتريت بمساعدة بعض الآباء الفرنسيسكان قطعة أرض لتضم رفاتـي في مثواي الأخير. عقدت العزم على السفر بمشيئة الله قريباً، أما إذا حال القدر دون ذلك لسبب يفوق إرادتـي، فكيلا أفقد محبتي لتلك الأرض التي غلبت كيانـي حتى أصبحت جزءاً مني، سأقرأ وأستمتع بـ «رحلات» الآخرين واضعاً نفسي مكانهم، خاصة الأقدمين منهم الذين زاروا المكان لرؤية أرض الله رؤية العين، طالبين الثواب وباحثين عن الغفران وراحة النفس والطمأنينة، وممهّدين الطريق للآخرين.

وعلى الرغم من مرور السنوات، فإنّ تلك الرحلات لا تفقدك الشعور بالانتماء، وكأنك فرد من عائلة كبيرة هي «عائلة الحجّاج». أما Roberto da San Severino «رجل السيف» الذي ينتمي إلى عائلة سفورزا Sforza فرحلته عام 1458 من Pavia إلى الأرض المقدسة كانت بهدفٍ سياسي، ومع ذلك فلقد عرف كيف يخفي ميله السياسي تحت لواء الدين، ويجعل من سفره حجّاً مباركاً.

تبدأ رحلته بوصف روحي يذكر فيه پاڤيا Pavia في القرن الخامس عشر بصورة مؤثرة وفريدة، فيقول: «الاثنين 1 مارس.. استيقظ كل واحد منا ليشترك في قداس الكنيسة الرئيسية المكرّسة لذكرى San Siro ثم انطلقنا نحو نهر التتشينو Tecino لنركب السفينة، يصحبنا عدد كبير من الناس، وبعون الله وبركاته بدأنا رحلتنا بعد ذرف دموع سخيّة».

قام الراهب نيكّولو دا پودجيبونصي Fra Niccolò da Poggibonsi في مارس 1345 بالإبحار من توسكانا إلى الأراضي المقدّسة، ومكث فيها 4 أعوام لرؤية كل شيء بتمعّن.. يقول: «بغية أن أتمكن من الحديث عن جميع الأماكن المقدسة في ما وراء البحار دون استثناء أو خطأ، مكثتُ 4 أعوام».. حسناً فعل هذا الراهب، فهذا هو معنى السفر. أما كتابه *Libro d'Oltramare* عن الأماكن المقدسة فهو يزخر بالأحاسيس الحية.

لم تكن رحلة الفلورنسيين الثلاثة عام 1384 مريحةً، ومع ذلك فقد أمضوا سنة كاملة يجوبون الأراضي المقدسة، وهم:

ليوناردو فريسكوبالدي Lionardo Frescobaldi .

وسيمونِه سيغولي Simone Sigoli .

وجورجو غوتشي Giorgio Gucci .

* * *

سنستعرض في كتابنا هذا عمل الاثنين الأولين، فبفضلهما عرفنا معلومات كثيرة جديدة ازداد بها كنزنا الأدبي فيما يتعلق بالقرن الرابع عشر، فهي «نصوص القرن الطيب»، كما أنها قراءات ذات نكهة لا يضاهيها شيء إلاّ فاكهة الجنة. كان فريسكوبالدي من أقرباء دينو Dino الذي أمضى فترة شبابه الطائش محاطاً بالنساء الجميلات في نهاية القرن الثالث عشر ولقد عاش في تشيتا دي كاستيلّو[1] Città di Castello مسقط رأسه، ثم أصبح سفير محافظة مدينته مرّات عدة لمناطق مختلفة من إيطاليا، مثل روما وآريتسو Arezzo وغيرها. كان محارباً ونبيلاً، فإذا نزل في ڤينيسيا حلّ ضيفاً على مائدة الدّودجه Doge (الحاكم الأول في ڤينيسيا). أما سيغولي فهو من عائلة لا تقل نبلاً عن تلك، فلورنسي من سان نيكّولو دولترانو San Niccolò d'oltrarno وفي شعار عائلته مناجل ثلاثة من الفضة ذوات مقابض ذهبية رسمت على حقل أزرق.

---

(1) مدينة إيطالية في مقاطعة أومبريا Umbria قريبة من مقاطعة توسكانا.

كان اللقاء في ڤينيسيا، وهو أفضل الأمكنة لكل من أراد التوجه نحو الأراضي المقدسة، وأكثرها مؤونة. يقول: «تموّنا بقماش وأثواب ضرورية لحجّنا.. اشترينا برميلاً من النبيذ الجيد وصندوقاً لوضع الإنجيل وكؤوس الفضة وأشياء خفيفة أخرى..». وكان هناك شعور بالانتماء الوطني الذي يميز الرحالين.. «التقينا برحّالينا الفلورنسيين».. والعشاء في منزل الصديق يعيد إلى أذهاننا جمال الحياة البسيطة، كالاشتراك في الحديث والأكل من مائدة واحدة.. «أكلنا سوياً وانطلقنا على مركب واحد»..

لقد واجهوا المغامرات نفسها في البر والبحر، واشتركوا في المناسبات واللقاءات، ونقلوا تعابير وملاحظات واحدة حتى لكأن عين الواحد تراقب الآخر. أما لغتهم فحيّة وطبيعية في سردها للأحداث وعرضها لشتى الألوان. وهي تنم عن سجية صادقة، لذلك فما يقوله الأول يصادق عليه الثاني. ومع ذلك أراد كل واحد منهما أن يوقع كتابه بنفسه... «أنا ليوناردو فريسكوبالدي»... «أنا سيمونِه سيغولي»... وبتكلف أكبر يترك لنا الأب نيكولو اسمه وكنيته واسم أبيه وموطنه وينظم لنا شعراً تشكل حروف أبياته الأولى كلمة، وذلك في المقاطع الـ 86 لرحلته.

لم يكن الرجلان تاجرين أو بحّارين أو رجلي علم، بل كانا ينتميان إلى طبقة النبلاء المثقفة، والسفر بالنسبة إليهما يعني اكتشاف العالم، وتفخيم الإحساس بالحياة وكأنه ضرورة حتمية يتطلبها الإيمان، فتبدو الرحلة وكأنها مسيرة إلى أعماق النفس ودرب خفي تسلكه الروح نحو الدين. ومع ذلك فهما حاجّان بسيطان ورعان لم يلجأا إلى أية محاولة للاستعراض أو إثارة المشاهد. لقد كانا يتصفان بإنسانية مرهفة وصادقة، وبحكمة مستعدة دائماً لتخطي الصعوبات، ومتحفزة للانبهار العفوي الطفولي. هذا الأمر نلمسه بشكل أقل لدى فريسكوبالدي، فسرده ينساب ببساطة، وهو إنسان حذر يدافع عن نفسه وروحه عالية تتلقف الأحداث بانتباه.

يستمع ليوناردو، ولكنه يتخيّل ما يمكن لغريمه أن يفكر.. «من الممكن أن يكون محتالاً...»، ومن حين لآخر يتحسّس في حقيبته الجلدية الدوقيات الذهبية عندما لا يكون مشغولاً بتحسس سيفه دفاعاً عن نفسه. ولقد استنتجنا أنه ليس حديث العهد بالسفر فهو يعرف مرفأ جنوة وأنكونا ويتكلم عن «الحمل الكبير» الذي زوّده به أسقف ڤولتيرّا Volterra مندوباً من قبل ملك ناپولي... الذي «يريد تقريراً عن أحوال تلك البلاد ليستولي على مرافئها، والأراضي التي يمكن السيطرة عليها، والأماكن التي تصلح كمعسكر للجيش..». ومع ذلك فتلك المتطلبات السياسية والعسكرية لا تتعارض مع شدة الإيمان الديني، فهو يقول: «إيماننا مقدّس».. وفي ڤينيسيا يمرض فينصحه الأطباء: «لا تركب البحر فتتحدى الله»، فالطريق شديدة الخطورة حتى على البحّار المتمرّس، أما ليوناردو فيصّر: «لقد صمّمت على أن أرى أبواب الصرح المقدس قبل أن أرى أبواب فلورنسا». «وإذا أراد الله أن يكون البحر مصيري فلتكن تلك مشيئته»..

وهو يبالغ عندما يقول ذلك، ولكنه لا يبالغ عندما نعرف بأن عنده 6 أولاد، 3 صبيان و3 بنات وامرأته حامل، ومع ذلك قرّر السفر فمهمته إذن ليست إلاّ نداءً باطنياً ورسالة يجب أن يؤديها... «يوم 4 سبتمبر باكراً تناولنا نحن الحجّاج القربان المقدس، وفي وقت الغروب وصلنا الباخرة وعملنا إشارة الصليب ثم صعدنا نحن وصحبنا»... إن إشارة الصليب تبارك السفر.. ويبقى ليوناردو في حالة مرض حتى مودونا Modona حيث تزول عنه الحمّى، فيرتب سريره كما يفعل في منزله في فلورنسا ويستسلم لجمال السفر.. يقول: «كان الهواء حليفنا».

ويأخذ بذكر الجزر والأرض والمرافئ، وكأن ڤينيسيا كلها تبحر إلى الأراضي المقدسة... إن البحر يبعث في النفوس الحيوية والرغبة في نظم الشعر.. ثم يتحدّث عن منزل مضيفه الڤينيسي... «بدا المنزل وكأنه مرصّع بالذهب، فكل شيء هنا ذهبي وأزرق».. ثم يبدي استحسانه بالمركب.. «حالفنا الحظ لأن مركبنا جديد وكبير وكأنه يسخر من البحر..».

وفي زانتِه Zante تجبرهم عاصفة على التوقف (لا يصف ليوناردو ولا حتى سيغولي أو غوتشي العاصفة ولكنه يتحدث عنها في طريق عودته)، يقول: «داهمتنا عاصفة هوجاء اقتلعت الأشرعة ولفتها على الصاري، وذهب المركب بنا نحو أرض البرابرة، وغمرنا الماء من كل الجهات حتى أننا فقدنا الأمل بالنجاة»...

وبسبب طبيعة فريسكوبالدي الريفية فهو يذكر الوليمة التي تتضمن حملاً ذا قرون أربعة! ودجاجاً وبيضاً وجبناً وفاكهة. أو يذكر صوت الريح في شجر البلوط.. «عندما تكون جافة وتهبّ الريح تصدر صوتاً قوياً من جراء اصطكاك الواحدة بالأخرى». أما سيغولي فيعرض المشهد بصورة فنية.. «نزل القرويون من الجبال ونشروا بضائعهم للبيع، فاشترينا دجاجاً سميناً ثمنه 9 دراهم من عملتنا لكل زوج..». وفي بعض الأحيان يسترسل في الحديث، فيبدو قلقاً مشتت الذهن تأخذه أفكاره، فينسى قواعد اللغة.

ومع ذلك فلديه أسلوبه الخاص المتميز، ويبقى هدفه الأول والأخير نقل الأشياء على حقيقتها.. «عندما جاء المسلمون على ظهر المركب أخذوا الشراع والدفة كما هي عادتهم! وحجزونا في مرفأ الإسكندرية وقدّمونا إلى عدد من المسؤولين الذين دوّنوا أسماءنا وقادونا كما تقاد الدّواب..». ومع ذلك، فهو يهتم كليوناردو بصياغة الكلام المنمّق.. «الإسكندرية أرض نبيلة».. قدّمنا إلى القنصل ومعنا كتاب توصية... «استقبلونا بترحاب وسخاء واصطحبونا كما لو كنا سفراء».. ويقارن الإسكندرية الجديدة بفلورنسا، ولكنها مع ذلك تضاهيها في تجارتها وبضائعها.. «هي أرض تجارية تكثر فيها التوابل والسكّر والأقمشة الحريرية».. «الإسكندرية أرض واسعة وشوارعها عريضة وجميلة وفيها بضائع من كل الأنواع ومأكولات من كل صنف.. لحم وفاكهة هي الأطيب في العالم وهناك رمّان كبير داخله أحمر كالدم وطعمه حلو كالسكر..».

* * *

وإذا قال فريسكوبالدي أقمشة حريرية أضاف سيغولي رقيقة وبرّاقة. يقول: «مصر هي أحسن بلد في العالم».. ثم يضيف: «النساء يتغطين بالخمار ولا ترى منهن إلا أعينهن.. وأنبلهن يضعن النقاب الأسود على وجوههن ويقول مقارناً: مساجدهم كالكنائس عندنا، ولكنها تخلو من الصور والمنحوتات ولا يوجد في بروجهم أجراس، وعندهم رهبان ينادون للصلاة صباح ومساء، وتتعالى أصواتهم لمباركة الرّب ونبيهم محمد». وتأخذ كلماته في بعض الأحيان طابعاً أسطورياً فهو عندما يتكلم عن القوافل يبدو وكأنه يتكلم عن ملوك المجوس، وأن جميع الطرقات تؤدي إلى دمشق والإسكندرية..

وهو يتكلم عن القبور قرب دار «الملك» بأنها مليئة بالأحجار الكريمة والفيروز واللؤلؤ. ثم يعطي الأشياء روحاً توسكانية عندما يقول: «يوجد في تلك الجزيرة (رشيد Roseto) 200 قصر كبير، فهي بحجم پراتو Prato، أو في مدينة القاهرة رجال يضاهون في عددهم سكان توسكانا كلها.. أو.. في شوارعها ناس يفوق عددهم سكان فلورنسا كلها. وأعشاش السنونو في غزة تضاهي كل ما رأه في توسكانا».

كذلك فسيغولي ذو خيال خصب ويقارن كل شيء مع بلده.. «هذه المدينة صغيرة لا تضاهي Prato في كبرها، وأرض تلك البلاد ليست سهلية ففيها هضاب ومنحدرات مثل بلدنا».. ويقول: «الخليفة، أي البابا عندنا.. والقاضي، أي الأسقف عندنا».. ثم يقول: «في الأرض المقدّسة حجر أسود عرضه 3 أذرع فلورنسية»، ثم يقول سيغولي: «عندما تفرغ المؤن يبدأون بالـ «السلام عليك يا مريم» إلى أن يأتـي الفرج»..

وأجمل شيء كتبه هو وصفه للحياة المصرية: «في المدينة طهاة كثر وهم يطبخون في الشوارع ليل نهار، وعندهم أوعية نحاسية جميلة يطهون فيها لحماً طيباً، ومهما كان الرجل غنياً فهو لا يطبخ في بيته، وإنما يرسل في من يأتيه باللحم من البازار كما يسمّونه».

ثم يقول.. «يأكلون مفترشين الأرض، ويتربّعون وعندما ينتهون يلعقون شفاههم..». ثم يصف الصبية والفتيات وأعمارهم لا تتعدى الـ 14 ويقول: «يسبحون في النيل عراة، ويطلبون من المراكب الليمون، وعندما نلقيه إليهم يذهبون لأخذه دون أن يبالوا بأيّ خجل من عريهم»..

أما ليوناردو فيصف الصحراء: «يركب الجمّالون متجهين بثقة تامة، وكأنهم يعرفون الطريق مسبقاً تماماً كما يفعل ربّان السفينة متفادياً جميع الصخور. ثم يصف البدو فيقول: استيقظنا في الصباح لنجد رجالاً يركضون نحونا وهم يصرخون عراة ضعفاء الجسم سود البشرة.. كأنهم شبح الموت.. فأعطينا كل واحد كسرة خبز»..

ثم يصف الصحراء: «ليس فيها بيت ولا سقف ولا شجرة ولا عشب.. بل هناك رمال دقيقة بيضاء ناعمة كالحرير، ولا يوجد ظل نحتمي به، بل تضرب الشمس بأشعتها القوية من الصباح إلى المساء حتى أن كل شيء يحترق. ولا يهطل المطر على الإطلاق. وهناك مرتفعات صغيرة ارتفاعها نصف ذراع تصعدها لكي تنزلها مباشرة، ثم تسير 30 ذراعاً لتصعد مرة أخرى ثم تنزل وهكذا.. وهي نظيفة كراحة اليد. وكل هذا من عمل الريح.. وعندما يجري الماء يتحول المشهد إلى منظر من مناظر الكتاب المقدّس.. مشينا فترة طويلة من النهار وعندما وجدنا الماء كان علينا أن نسير نصف ميل قبل أن نصل، وهنا شربنا وسقينا الدواب ثم ملأنا القرب بالماء»...

وهو شديد الملاحظة: «في غرفة الأمير كانت مساند المجالس جميلة جداً بزخرفتها الغنية، وكذلك السجاد المفروش على الأرض. وفي جدول الماء يوجد حصى متعدد الألوان وكأنه أحجار كريمة.. ووصفه دقيق: شاهدنا مسيحياً إغريقياً بدا وكأنه قديس نحيل الجسم، غائر العينين.. أسود البشرة كأنه شبح الموت.. تركنا له بعض الخبز فظن أنه أصبح غنياً»..

* * *

هذا الوصف يتميز به سيغولي عن ليوناردو.. ثم هناك وصف للحيوانات التي اكتشفوها في مصر لأول مرة، مثل التمساح.. «وجدنا في النيل ثعباناً طوله 8 أذرع ولونه برّاق وظهره مغطى بالحراشف.. والزرافة كبيرة كالجمل ومسالمة كالنعجة وجلدها كجلد الغزال»... وهناك وصف للفيل..

ولا ينسى ليوناردو مهمّته السياسية ونظرته الاستراتيجية فيقول عن الإسكندرية بأنها أرض تجري فيها الخيول وتصلح لنشر المعسكرات، وبإمكان جيش كامل أن يجوب فيها. ثم تظهر تقواه عندما يصف الأماكن الدينية... وصلنا إلى المكان الذي ضرب فيه موسى الحجر فانطلق منه ماء غزير، وكان يصحبه أخوه هارون.. هذا الوصف يدل على مدى معرفة ليوناردو بالدين، وهو يعيش اللحظات الدينية ويصف غزة وشمشون..

يصل إلى بيت لحم في يوم 21 أكتوبر، بعد 3 أشهر من السفر. ولكن هنا تبدو الأيام رتيبة متشابهة والصفحات المكرّسة للأرض المقدسة تصبح زيارات وطقوساً لطلب الغفران، وهنا ينخفض العطاء الأدبي وتبدو الكنائس التي زارها وكأنها دليل سياحي. أما التذكير بأيام السيد المسيح والعذراء ففيه مشاركة روحية، وهو عبارة عن «يوميات» أو دفتر مذكرات لم يبذل فيها أي جهد لغوي، بل هي لا أكثر من تعداد أحداث وحسب، تخلو من أي تعليق.

ثم يذكر بعض القصص: قصة الرجل الذي يزرع الحمّص، والأخرى المتعلقة بالحصى الذي يأخذ شكل اللسان كشاهد على كلام المسيح. يبدو أن ليوناردو لا يريد أن يأخذ على عاتقه عبء التسجيل التاريخي للمدينة المقدسة أو لبيت لحم أو الناصرة والمدن الإنجيلية الأخرى التي ميزها الحضور الإسلامي. هذا يدل على إخلاصه الديني، فهو يرفض الوصف وينصرف إلى التعبّد وكأن ليوناردو قد كتب لنا نحن القراء الفضوليين مقداراً معيناً ثم بدأ بالكتابة لنفسه، فيذكر نقاطاً سريعة.. ولكنه يصف بعد ذلك نهر الأردن: «نحن كنا نجيد السباحة بينما بقي الآخرون ينتظرون»..

ثم يصف بحيرة طبرية ويقول إنّ هذا البحر يأخذ من نهر الأردن الذي يصبّ فيه كما هو الحال في بحيرة غاردا في لومبارديّا.

أما سيغولي فلقد ذكره غابرييله دانونتسيو D'annunzio الكاتب الإيطالي الشهير، وهو باحث نَهِم عن «رحلات ما وراء البحار» ذكره في كتابه المذكور لطرافة وأهمية ما كتبه. وفي كتابه *Vita di Cola* يقول في المقدمة: «جذبني كتاب أحببتُه كثيراً هو *Viaggio al Monte Sinai* «رحلة إلى جبل سيناء» لسيمونِه سيغولي، وفتحتُ الكتاب وكأنني ألتهم تفاحة شهية». فأسلوبه جميل وقلّما يحظى قارئ من «العصر النبيل» بقراءة أجود منه، يفتتح: «باسم الله، آمين.. هنا نتكلم عن أرض ما وراء البحار النبيلة.. عندما نذهب لرؤية الصّرح المقدس، وعندما تمتلئ السماء بالنجوم يبدأ الناس بأكل اللحم طوال الليل»...

هذا أسلوب جديد لذلك العصر، وخاصة عندما يتعلق الأمر بمكتشفات جديدة وهامة. مثلاً عندما يتكلم عن الفيل والزرافة والتمساح ولقد شاهدهما للمرة الأولى، لذلك فكتابه أمتع الناس في زمن لم يكن السفر إلا للنبلاء والأغنياء من الناس القادرين على تحمل النفقات والاتصال بالحكام والسفراء للحصول على كتب توصية كما سنرى في نصوص فريسكوبالدي وسيغولي لاحقاً.

* * *

وعندما يتكلم سيغولي عن طائر الحمام يصف المشهد وكأن القارئ يعيش معه ويرى بعينيه: «سنتحدث عن طائر الحمام في تلك الأرض. وهناك العدد الكبير منه في القاهرة، لونه أبيض كالثلج وأقدامه ومناقيره حمراء. وهو يدخل من النوافذ ويضع أعشاشه في الغرف وفي كل مكان وهو جميل ووديع».. ثم يتكلم عن أمير الإسكندرية.. «عند وصولنا كان يجب علينا أن نخلع أحذيتنا ونسير مسافة 25 ذراعاً ثم نقبّل الأرض.. وكان الأمير يجلس متربعاً على سجاد فاخر وهو يجلس كما يجلس الحائك»..

تقرأ وتكاد تشاهد ابتسامة على وجه سيغولي وهو يكتب، وملاحظته دقيقة يتكلم عن عاداتهم.. «إنهم لا يخنقون الدجاج وإنما يذبحونه، وإذا أردت أن يطهي لك الطهاة منها عليك أن تشير بإصبعك إلى السمين منها أو من الطيور الأخرى. وسعر الواحد منها 6 دراهم من عملتنا. وإذا أردت الدجاجة ينتف لك ريشها، أما إذا أردت لحماً فيعطيك إياه دون عظمه، وكذلك إذا اشتريتها من الطاهي فهم ينزعون العظم، تلك هي عاداتهم. أما إذا أردتها مع عظمها فيجب أن تقول له لكي تحصل عليها. وهم طهاة ماهرون ويحبّون عملهم».

ويتمتع سيمونِه بالنظر إلى الأراضي الخصبة والمزروعة بشكل جيد والممتلئة بالينابيع.. «ينبوع المياه الحيّة».. «جداول المياه والقنوات».. «السلال الممتلئة بالفاكهة.. وهم يضعون الثلج عليها صيفاً وشتاءً لكي تبقى طازجة ولذيذة الطعم». ولم يكن الغرب أو أوروبا يعرفان طريقة صنع الثلج لحفظ المواد الغذائية، وهذا أمر جديد يستمتع به قرّاء ذلك العصر!

ولا يغيب عن سيمونِه النظر إلى النساء، ويلاحظ هندامهن فيقول: «يلبسن بشكل لا يبدو منهن إلا أعينهن»، ويصنف النساء بتعبير «الجديدة» و«المستعملة»، ثم يقول: الآن نتكلم عن مدينة القاهرة النبيلة، فيتكلم عن جسد القديسة كاترينا الذي بقي حوالي 500 سنة وحفر مكانه في الصخر. ثم يصف الشيوخ المسنين في القاهرة وهيبتهم ولحاهم البيضاء المتدلية وكأنه يصف شيوخ «كتاب الملوك».

أما دانونتسيو D'annunzio وهو الكاتب المرهف الذي يستهلك بكثرة الماء المعطرة فيذكر النص المتعلق بدمشق وماء الزهر الذي يستخلص من حدائقها الجميلة التي تشبه حدائق آرميدا Armida. ويقول: «خارج دمشق حدائق جميلة مزروعة بأفضل أنواع الفاكهة، وإليها يخرج الناس رجالاً ونساءً عندما تكون الشمس في أوجها للتنزه والاستجمام. وفيها عدد هائل من الورد يصنع منه سائل معطر هو الأجود في العالم»..

في النهاية، من خلال غنى ما تحتويه تجربة الرحالين وإيمانهم، قرّر مدير «سلسلة الـ 24» "Collezione in ventiquattresimo" پييترو پانكرازي أن ينشر رحلتي فريسكوبالدي وسيغولي، وقد طبعت للمرة الأخيرة في فلورنسا في دار Barbèra عام 1862 مع رحلة غوتشي Gucci، أي منذ أكثر من 80 سنة. ولكن تلك الطبعة لم تحتوِ على مقدمة أو ملخص يقدّم صاحبيها إلى القراء، فبديا وكأنهما من عامّة الناس. لذلك وجدنا من اللائق أن نعيد إليهما بعض اعتبارهما في نسختنا هذه.. وإعادة طبع هذا النص أمر مهم لاستعادة الشعور بتلك الأيام السالفة، ولون الماضي في أزمنة خلت، عبّر عنها السفر كطريقة عيش أو إعادة عيش أيام من السعادة والبراءة[1].

تشيزَرِه آنجيليني Cesare Angelini

* * *

(1) توفي آنجيليني في پاڤيا عام 1976 (وولادته كانت في آلبوتسانو Albuzzano)، والحق أنه ترك لنا في دراسته هذه كنزاً ثميناً عن مشرقنا الإسلامي في عصر المماليك. وتعدّ نشرته لنصّي فريسكوبالدي وسيغولي الأفضل من نوعها (وإن كانت نشرة فياكّي القديمة أوسع).

رحلة إلى الأراضي المقدسة

ليوناردو فريسكوبالدي

1 - عشية الرحيل

سافرت أنا ليوناردو دي نيكّولو فريسكوبالدي Lionardo di Niccolo Frescobaldi من منزلي الرّيفي مساء التاسع من أغسطس 1384 المصادف لذكرى القديس لورنزو المبارك، قاصداً فلورنسا حيث التقيت جورجو دي ميسّر[1] غوتشو دي دينو Giorgio di Messer Guccio di Dino، وآندريا دي ميسّر فرانشيسكو رينوتشيني Andrea di Messer Francesco Rinuccini وهما من مواطنينا النبلاء، وذهبنا معاً في رحلة لقضاء الحج.

تركنا مدينة فلورنسا يوم 10 أغسطس 1384 متجهين نحو باب سان غالو San Gallo قرب لاسترا Lastra للعشاء عند غويدو دي تومازو دي نيري Guido di Tommaso de Neri الذي كان سيأتـي معنا، فلقد كانت الفكرة فكرته، وكنا معاً سفراء مع ممثل محافظة فلورنسا إلى أسقف الملك كارلو في مدينة آريتسو Arezzo.

* * *

(1) لقب قديم كان يطلق على رجال الدّين أو النبلاء.

لقد كان علينا أن نقابل الكونت آلبيريغو دي باربيانو Alberigo di Barbiano وكذلك ڤيلانوتشو Villanuccio وهما من تلك المدينة. ونظراً لانشغال غويدو بأمور المحافظة وبأموره الشخصية والعائلية، وكان والده قد توفي منذ فترة وجيزة، فلقد اعتذر منا أنا وجورجو پريديتّو Giorgio Predetto عن القيام بالرحلة. لذلك لم يكن آندريا رينوتشيني Andrea Rinuccini في البداية من مجموعتنا، ولكنه انضم إلينا فيما بعد ليحل محل غويدو Guido الذي طلب منا ثلث الغفران الذي سنحصل عليه من الأراضي المقدَّسة[1].. ربنا اجعل في هذا المقصد بركة له ولنا آمين...

أما ميسّر نوفريو Messer Nofrio فهو راهب روميتانو Romitano ومعلّم علم اللاّهوت المقدس. كان أسقف مدينة ڤولتيرّا Volterra ثم أسقف فلورنسا، ثم أصبح سفير مدينتنا وممثلها عند الملك كارلو... لو قدّر لهذا الملك وبقي على قيد الحياة لكان شاركنا السفر إلى ما وراء البحار. طلب الملك آنذاك من ميسّر نوفريو Messer Nofrio أن يرافقه إن هو أراد زيارة الأماكن المقدسة فصافحه موافقاً، ذلك أن هذا الأخير كان سيداً وواعظاً فضلاً عن كونه معلّم لاهوت. وبما أنني أنا ليوناردو دي فريسكوبالدي صديق المدعو ميسّر نوفريو الذي يعرف الكثير عني وعن أفكاري، حتى قبل أن يكون أسقف ڤولتيرّا عندما كان راهب سانتو سپيريتو Santo Spirito (الرّوح القُدس) وكنت أعترف عنده، فلقد وضعت نفسي تحت تصرفه كما لو أن طلباته بمثابة أوامر.

ولقد طلب مني أن أزوّده بمعلومات عن المرافئ التي سأزورها، والأراضي التي تصلح لنشر معسكرات الجيوش، لأصطحب الحملات إذا اقتضت الحاجة فيما بعد. لكنني لست خبيراً بهذه الأمور، مع أنني خضت سبع حروب تضيف إلى خطاياي العديدة خطايا أخرى.

* * *

(1) كان في المعتاد يمكن طلب الغفران في الأراضي المقدسة للميت وليس للحي لقاء مبلغ من المال.

2 – من فلورنسا إلى ڤينيسيا[1]

بعد أن تناولنا العشاء عند غويدو Guido مع أفراد عائلتنا وأصدقائنا وعدد من أبنائي الستة، وعندي ثلاثة ذكور وثلاث إناث وزوجتي حامل، اصطحبنا الجميع إلى سكارپيريا Scarperia لنأخذ طريقنا إلى بولونيا Bologna ثم فيرّارا Ferrara، وركبنا نهر الپو Po على طريق كيودجا Chioggia حتى بلغنا ڤينيسيا. وهناك تزودنا بعدد من الأغطية المحشوة بالقش والشعير التي تصلح كفراش وضرورية كمؤن للحج والسفر في البحر أو في الصحراء حيث كانت وجهتنا.

وفي ڤينيسيا وقع اختيارنا على جوڤانـي پورتيناري Giovanni Portinari لنحل ضيوفاً عليه، وهو تاجر فلورنسي كبير وأحد أقربائي. وسرعان ما انتابتني حمّى شديدة لكنني بفضل الرب كنت قد طلبت الغفران وأممت الأماكن المهمة في ڤينيسيا[2]. شاهدت في كنيسة القديسة لوتشا Lucia جسدها كاملاً ويبجّلها الڤينيسيون كثيراً، وفي دير راهبات القديس زكريا والد القديس يوحنا المعمدان رأينا جثمانهما. ورأينا كذلك جثمان القديس San Giorgio di Nazaret (القديس جرجس الناصري) وجثمان القديس تيودور الشهيد S. Teodoro martire . وفي كنيسة القديس كريستوفانو Cristofano شاهدنا ركبته في المذبح.

أما في كنيسة القديس جريس خارج ڤينيسيا فرأينا ذراعه وجثمان القديس بولس الشهيد ورأس القديس فيليتشِه S. Felice. أما في كنيسة القديسة هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين فرأينا جسدها كاملاً.

---

(1) يرد في النص الإيطالي الأصلي: Vinegia (ڤينيجيا)، وهو الاسم الذي كان يطلق على ڤينيسيا (البندقية) في القرن الرابع عشر.

(2) كانت زيارة القديسين والتبرّك بهم من أهم قواعد السلوك في أوروبا بالقرون الوسطى.

كذلك رأينا الجزء الأكبر من خشب الصليب وأصبعاً من يد القديس يعقوب الحواري S. Jacopo apostolo، وثلاثة أصابع من يد الإمبراطور قسطنطين. وفي كنيسة القديس دوناتو S. Donato في جزيرة مورانو Murano خارج ڤينيسيا وجدنا قبراً كبيراً من الحجر وضع فيه 199 جسد طفل وقيل لنا بأنها أجساد الأطفال الأبرياء innocenti الذين قتلهم الطاغية هيرود Erode في المذبحة الشهيرة، وما زالت الجروح واضحة في كل أجزاء تلك الأجساد. وقيل بأن عددهم 200 ولكن ملك هنغاريا حصل على اثنين منهم عندما وقع الصلح بينه وبين الڤينيسيين.

وفي كنيسة القديسة مارينا جسدها، والقديسة مارينا هذه كانت شابة خرجت من بيت ذويها متخفية بلباس الصِّبية ودخلت ديراً وتعرضت للمعارضة الشديدة معتقدين بأنها ذكر، وعاشت حياة القديسين الكاملة إلى أن سلّمت روحها للرب.

* * *

3 - اتفاق الحجّاج على الرحيل

التقينا بالعديد من الحجّاج من فرنسا ومن ڤينيسيا منهم ميسّر[1] ريميجي سورانزي Messer Remigi Soranzi الذي استضافنا على العشاء مرة، وكان من عادته أن يستضيف الكثير من الحجّاج، وهذا أمر يشرفنا كثيراً. كان بيته الكبير يغلب عليه اللون الذهبي والأزرق. ولقد أنفق مبلغاً للمناسبة وصل إلى 12.000 فيوريني وزاد عليها 3000 أخرى.

قرر الحجّاج الذهاب مباشرة إلى لأماكن المقدسة، وكنا نحن الفلورنسيين: سانتي دِل ريكّو، سيمونِه سيغولي، أنطونيو دي پاولو مَيْ Santi del Ricco, Simone Sigoli, Antonio di Paolo Mei بالإضافة إلى راهبٍ من الكاسِنتينو Casentino. وقرر ثلاثة منا الذهاب إلى مصر لزيارة كنيسة القدّيسة كاترينا، فبدأنا بتحضير المؤن واكترينا مركباً جديداً دفعنا ثمنه 17 دوكاتي (دوقية) للشخص الواحد، وعقدنا العزم على المضي إلى مرفأ الإسكندرية، وتولّى الشوق كل من رآنا نحضر أنفسنا لتلك الرحلة.

وعند اقتراب موعد السفر اشتدت علي الحمى، فرغب الأطباء بمنعي من ركوب البحر، ولقد اجتمع جورجيو وآندريا مع عدد من تجار فلورنسا وأصدقاء ڤينيسيين فقرروا مع الأطباء رجوعي إلى فلورنسا، ولقد كنت في منزل ياكوپو فيليپي Jacopo Filippi حيث قامت أمه وأخته على العناية بـي، وتعذرت علي الإقامة في بيت پورتيناري Portinari لأنه لم يكن هناك نساء ليشرفن على صحتي.

---

(1) ذكرنا أعلاه أن هذا لقب قديم كان يطلق على رجال الدّين أو النبلاء، وسوف يتكرّر مراراً في نصّ المؤلفين.

ولقد اقترح ميسّر ريميجي سورانزي Messer Remigi Soranzi قائلاً: «أنتم الفلورنسيون لا تجيدون ركوب البحر مثل الفينيسيين أو الذين يعيشون على البحر، فذهابكم للإسكندرية وهو جهد يضني أكثر البحّارة مهارة سيكون بمثابة التحدّي لإرادة الله». فأجبته بأنني لا أتحدى الله، بل على العكس إنني أضع نفسي المتواضعة تحت رحمته، وأرغب برؤية أبواب الصّرح المقدس قبل رؤية أبواب فلورنسا. وإذا أراد الله أن يكون البحر مثواي الأخير فلتكن هذه مشيئته.

كان ربّان المركب شاهداً على كلامي وكذلك الأطباء. واسم الربان لورنزو موروزيني Lorenzo Morosini، أما اسم القارب فهو پولا Pola. ولقد وصف لي الأطباء أنواعاً من الأدوية لشفائي وزوّدونـي بعدد من النصائح، كما تخلّى ربان المركب عن غرفته لي لأمكث فيها. أما راهب الكاسِنتينو Casentino فقد مرض هو الآخر، ولكنه عندما رأى تصميمي على ركوب البحر فعل مثلي.

تزودنا بمؤن كثيرة، ومن الأشياء التي أخذناها برميلاً من النبيذ الفاخر اشتراه فيليپّو دي ياكوپو فيليپّي Filippo di Jacopo Filippi وصندوقاً نضع فيه حوائجنا وأغراضنا الرئيسية، كالإنجيل وكتب الوعظ والصلاة وأكواب الفضة وأشياء أخرى صغيرة، ومن الصندوق يخرج حبل يُربط إلى غطاء من الجهة السفلية، وفي طرفه فتحة خبأنا فيها 600 دوقية جديدة، أي 200 دوقية من كل واحدٍ منا و200 دوقية أخرى من الفضة و100 من الذهب.

وحمل كل واحد منا 700 دوقية ورسائل توصية إلى الإسكندرية إلى غويدو دي ريتشي Guido de Ricci وهي من الپورتيناري Portinari، وكذلك إلى آندريا دي سينيبالدو دا پراتو Andrea di Sinibaldo da Prato في دمشق وهي رسالة من قبل الپورتيناري أيضاً.

وفي 4 ديمسبر 1384 في الصباح الباكر، تناولنا نحن الحجّاج قربان السيد المسيح في كنيسة القديس ماركو وكان عددنا 14.

4 - من ڤينيسيا إلى الإسكندرية

شُدت حبال المركب في ذلك الصباح على بعد 3 أميال من ڤينيسيا استعداداً للسفر. وفي المساء قرب ساعة غروب الشمس ركبنا قارباً فيه 16 مجذافاً، ومعنا أصحابنا من الفلورنسيين والڤينيسيين متجهين نحو المركب. وبعد أن باركنا بإشارة الصليب وشربنا نخب السفر، رجع الآخرون وصعدنا ونشرنا الأشرعة باسم الربّ. وكان على ظهر المركب عدا الربان ومساعده 15 بحاراً مدرباً بشكل جيد، ومع التجار والحجّاج والجنود ظهر المركب بطاقم مشرّف ومحترم. وهكذا أبحرنا، وكانت الرياح مناسبة من خليج ڤينيسيا حتى ساسّونو[1] Sassuno.

كان مركبنا جديداً وكبيراً باستطاعته التغلب على تقلبات الأمواج، أما المركب الذي صادفناه في طريق عودته من الحج فكان قديماً امتلأ بالفقراء من الحجّاج العائدين من الأرض المقدسة. وقيل بأن 200 منهم قد غرق، ولشدة بؤسهم اختاروا مركباً عتيقاً، ومن يدفع الثمن هم دائماً الفقراء الذين لا يملكون شيئاً، ولكن إيماننا القوي يقول بأن نصيبهم في النجاة في الآخرة أكبر وأن مكانهم عند قدمي المسيح.

أبحرنا ثمانية أيام وحالفنا الحظ فوصلنا إلى جزيرة جيانتِه[2] Giante، وبها جبل بدا وكأنه قوس مقبب يحميها كالدرع، واسم الجبل ليسپانتو Lispanto وإنّ اسمه الإغريقي يعود إلى ثعبان كان يكثر في هذا المكان فأخذ الاسم عنه. وتوجد في هذا المكان حفرة عميقة يكثر فيها السمك ورائحتها نتنة جداً.

---

(1) مدخل في خليج إيستريا Istria .

(2) اسمها اليوم بلفظ: زانتِه Zante .

مكثنا هناك 6 أيام نقتات على العنزات والخراف ذوات القرون الأربعة[1] والدجاج والبيض والجبن والفواكه. لم يكن هناك فاكهة كثيرة تنبت في هذا المكان ولكن هناك ثمر البلّوط الذي يصدر أصواتاً عالية جداً عندما يجف وتهزه الريح تصطدم الحبّة الواحدة بالأخرى، كما أن هناك عدداً من الحبوب التي تستخدم في دبغ وصباغة الأقمشة.

5 - مودونا

أبحرنا وفي اليوم الـ 19 من الشهر نفسه وصلنا مودونا[2] Modona وهناك قلعة مسوّرة من جهة رومانيا[3]، وهي شهيرة، وكان وقت حصاد العنب إلاّ أننا لم نجد أثر للنبيذ المعتق، أما الرومانية الجديدة[4] التي يصنعونها ويعبئون منها جميع براميلهم فرديئة، وهم مضطرون إلى استهلاكها وإلاًّ أصبحت فاسدة وامتلأت بالديدان نظراً لكبر حبّاتها. ولا أعرف أيها الأسوأ للنظر أو للذوق! وهنا التقينا بمحافظ من ڤينيسيا من عائلة ديكونتاريني dé contarini ولقد شرّفنا بكتابة رسالة توصية إلى قنصل ڤينيسيا في الإسكندرية وفي بيروت[5] ودمشق، وإلى ترجمان السلطان الذي كان ڤينيسيّاً ارتد عن دينه وكذلك زوجته وكانت فلورنسية، وستتكلم عن ذلك فيما بعد عند وصولنا إلى القاهرة.

داهمني المرض مرة أخرى في ذلك المكان، وكان عليّ أن أتبع حمية غذائية وأن آكل الدجاج المهروس. وفي هذا المكان أيضاً ذهبت عني الحمى ولكن صاحبنا الراهب من الكاسِنتينو Casentino كان أقل حظاً فوافته المنية ونقلناه من البحر إلى البر حيث دفنّاه في كنيسة تتبع مذهب القديس S. Domenico.

---

(1) خراف عجيبة غريبة تلك التي يذكرها فهل هي كذلك؟

(2) Metona di Plinio وهي مدينة في منطقة المورة Morea كانت ملك الڤينيسيين.

(3) Romania كانت تطلق على الإغريق وأراضي الإمبراطورية الإغريقية.

(4) الرومانية الجديدة تعني النبيذ أيضاً.

(5) يدعوها فريسكوبالدي في نصّه الأصلي Baruti على عادة الرحّالين الطليان آنذاك.

وهناك مقابل مرفأ مودونا تلٌّ يدعى Poggio della Sapienza أو «تل الحكمة»[1] وإليه كان يأتـي الفلاسفة والشعراء يمارسون فنهم، وعلى قمة الجبل برج ممتلئ بالخشب وقف عليه عدد من الحرّاس يلوّحون بأقمشة بيضاء نصبت على عصا عند رؤية المراكب تعلو سطح الماء. والإشارات[2] تختلف باختلاف المكان الذي تأتـي منه المراكب. ويقع المرفأ بين جبلين: جبل مودونا وجبل الحكمة، ومكانه استراتيجي لتفادي القراصنة من جهة ولصد الريح من جهة أخرى. وهناك في «تل الحكمة» عدد من النسّاك الذين يعيشون في عزلة يطلبون الغفران والتكفير عن ذنوبهم وفي المنتصف كنيسة تحتوي على رفات القديس ليو Leo. أما القلعة التي يعتبرها الكثير من الناس مدينة فتبعد عن ڤينيسيا 1000 ميل.

موّنا المركب باللحم والخل والجبن والثوم، ثم تركنا مودونا في العشرين من سبتمبر، وتابعنا مسيرنا محاذين للشاطئ حتى وصلنا إلى كورونا وهي للڤينيسيين في رومانية، واشترينا عدداً من البضائع من تجار كانوا هناك.

غادرنا رومانية نحو الإسكندرية تاركين جزيرة كريت ومررنا بجزيرة قيل بأنها انشطرت إلى قسمين عند وصول جثمان القديس ماركو الإنجيلي من الإسكندرية، وحالفنا طقس جميل إلى أن وصلنا إلى ميناء الإسكندرية القديم في الليل، وذلك في يوم 27 من الشهر نفسه.

* * *

(1) هي جزر دونوزِه دي پاوزانيا Donose di Pausania قرب مودونا وهذا المكان الذي يدعى پودجو Poggio يشبه القصر الذي وصفه دانتِه Dante في الملهاة الإلهية (الجحيم)، انظر:
La Divina Commedia, Inferno, c. IV.

(2) هذا التلويح بالأعلام يذكرنا ببرج مدينة Dite التي يحرسها الشياطين ويعلنون عن قدوم أحدهم بلهب النيران.

6 - النزول إلى الإسكندرية

طرحنا المرساة بعيداً عن الشاطئ خوفاً من المسلمين[1]، وأمضينا ليلة جهنمية داهمتنا فيها ريح عاتية هوجاء تخبّطت فيها السفينة يميناً وشمالاً بصورة تفوق الوصف، وعند الصباح أتانا حرس السلطان من المسلمين وعددهم 20، منهم البيض والسود، وألقوا نظرة على البضائع دون أن يسجلوا أو يكتبوا أي شيء. ونظروا إلى الناس في المركب ثم أخذوا الأشرعة والدفة كما جرت عليه عادتهم، وجاء معظّمو (أتباع) السلطان والقنصل الفرنسي المسؤول عن الحجّاج والحمّالون وأخذونا وأمتعتنا.

حدث ذلك كله في 27 سبتمبر. فأدخلونا باب الإسكندرية وقدّمونا إلى عدد من المسؤولين، وسجلوا أسماءنا ورقّمونا كما يفعلون مع البغال، ثم سلمونا إلى القنصل وعاملونا كالبهائم وفتشونا حتى اللحم. أما متاعنا فوضعوه في الجمرك وفتحوا كل شيء ونبّشوه، وبصراحة كنت أخشى أن يعثرا على الـ 600 دوقية التي خبأتها بإحكام خوفاً من ضياعها. وأرغمونا على دفع 2 ٪ من الذهب، وكذلك من الفضة، ودوقية واحدة عن كل فردٍ منا كضريبة.

ثم ذهبنا مع القنصل إلى داره الكبير، وهو فرنسي وزوجته مسيحية ولدت في أرض الإسلام Saracinia، ولم يكن تقيّاً ولا زوجته. وقد أعطانا 4 غرف فوق بهو الدّار، وسمح لنا باستعمال المكان فقط وهو خالٍ إلا من قفص كأنه أعدّ للخراف. فوضعنا عليه غطاءنا لننام عليه، وخارج الباب أعمدة لها قناطر تحيط بالبهو السفلي وكأنها دير للرهبان، وهم يخزّنون البضائع في الأسفل.

---

(1) يسميهم فريسكوبالدي Saraceni (ساراتشيني) في كتابه.

وسألنا الفرنسي إذا كنا نرغب في المبيت عنده فوافقنا بعد أن اتفقنا على الأجر وأخذنا إلى قنصل ڤينيسيا وقنصل القطلان والجنويين وإلى ڠويدو دي ريتشي Guido de Ricci وهو يمثل الپورتيناري Portinari، وعندنا للجميع رسائل توصية. ولقد أحسنوا استقبالنا واستضافونا في الصباح بمنتهى الكرم ورافقونا في البلد وكأننا سفراء.

* * *

7 - الوضع العسكري في الإسكندرية

ليست الإسكندرية كما كانت وقت الفراعنة، ولكنها مع ذلك لا تختلف عن ذلك الزمان بكثير. وفيها قُطع رأس القديس ماركو (مرقس) الإنجيلي، ليغفر الله له ويتُب عليه، ولقد استولى عليها ملك قبرص عندما قاد الحملة الصليبية، ثم استرجعها المسلمون وسوّروها بسورٍ جميل وصنعوا أبراجاً مدوّرة في أعلاها. ويقال بأن عدد السكان المسلمين والمسيحيين واليهود يبلغ 60.000، وهناك أمير لديه عدد كبير من الجنود والحرس لحمايته من المسيحيين الذين يدعونهم فرنج، وهو اسم مأخوذ من الفرنك الفرنسيين.

أما رجال السلاح من المسلمين الخاضعين لسلطة الملك فهم من التتر والأتراك والعرب، ومنهم سوريون، وهؤلاء لا يضعون الدروع ولا يغطون رؤوسهم بل يكتفون بحماية صدورهم بدرع وخوذة صغيرة على الرأس على شكل قبّعة يلتف حولها النسيج الأبيض من الملينا[1] Melina المعقودة على الطريقة الإسلامية Saracinesca، ومنهم من يحمل قوساً سورياً، ومنهم من يضع خنجراً في حزامه وهو يشبه السيف ولكنه أصغر ومعقوف من طرفه إلى الأعلى.

(1) نسبة إلى «مالين» وهي مدينة في الفياندرِه Fiandre (مثل كلمة آراتسو Arazzo وهي جدارية تصنع من الخيوط المحاكة كالسجّاد، نسبة إلى مدينة آرّاس Arras).

أما خيولهم فهي تشبه خيول البربر، وكلها من نفس الحجم وسريعة العدو، ولكنهم يتركوها في مكان لا تخلد فيه إلى الراحة أو الأكل، ويضعون غطاءً على جوانبها. أما الأكل فيضعوه في كيس يربط إلى رؤوسها بحبلين لتتمكن من وضع فمها فيه.

8 - الملك وحاشيته

ويحكم الإسكندرية رجل يدعى «الملك» Lamolech[1]، يعيش في قصور كانت تقيم فيها القديسة كاترينا البتول، ولقد تغير شكلها الآن وهو مكان ضخم. وقبل وصولك إلى القصر الملكي تجد باباً كبيراً عليه عدد من الجنود والحرّاس، ولقد تكلم قنصلنا الفرنسي مع أحد الحرّاس باللغة العربية مبلّغاً إياه بأننا حجّاج قد استدعانا السلطان لنخضع لأوامره. وسرعان ما ذهب أحدهم وتأخر كثيراً في الرجوع، ولا أعرف أين ذهب. ولكنهم وضعونا في بهو عبرناه لندخل باباً آخر فيه مجلس كبير وعدد من النبلاء وأهل البلاط، فاستقبلونا بترحاب واستدعانا البعض لنصعد سلماً في أعلاه باب يفضي إلى صالة كبيرة، وطلبوا منا خلع الأحذية قبل الدخول.

هناك، وفي مكانٍ عالٍ جلس السلطان متربعاً يلبس قماشاً من الحرير، وقد تحلّق حوله رجال بلاطه واقفين أمامه، وأما الصّالة فكانت مقسّمة ثلاثة أقسام ومليئة بالأقمشة والسجاد الرائع، وامتلأت الجدران بالزخارف الجميلة. وقبل دخولنا كان علينا أن ننحني ونقبل الأرض ويدانا ممدودتان إلى الأمام، وعند وصولنا قرب السلطان فعلنا الشيء نفسه. ثم سأل السلطان ترجمانه Turcimano أشياء كثيرة عنا وعن زيّنا وعاداتنا ومركزنا وعن الإمبراطورية، وسألنا فيها إذا لم يُتَوّج امبراطورنا، وإذا كان عندنا اثنان من الباباوات، وعن ثرواتنا ومناقبنا وفضائلنا. فأجبناه بما يناسب ويليق بكنيستنا المقدّسة وهو دَين علينا.

---

(1) يدعوه فريسكوبالدي في نصه الأصلي: Lamolech «لامولك».

9 - زيارة الإسكندرية

بعد انتهائنا من زيارة السلطان، ذهبنا لزيارة المدينة والأماكن المقدّسة فيها. تقع الإسكندرية على البحر ولها كل غنى فلورنسا، وهي أرض ذات منتوجات كثيرة، فيها توابل وسكّر وأقمشة الحرير. وهي تقع من جهة على البحر ومن جهة أخرى على قناة حفرت يخرج منها النيل الذي ينبع من نهر الأردن، وهو من أنهر جنة عدن وقسم منه يتجه إلى الهند ماراً بالبحر الأحمر. لذلك فعبر النيل والبحر تبحر البضائع، وتأتـي القوافل براً على الجمال لتلتقي في الإسكندرية أو في دمشق.

ولذلك فهي أرض نبيلة، وتبعد 300 ميل عن الإمبراطورية في القاهرة التي يعيش فيها السلطان. ولقد جرت العادة إذا توفي شخص بارز أن يدفن في قبورهم التي تقع خارج الحدود باتجاه الإسكندرية القديمة، ويخرج عندئذ عدد كبير من الناس يشيّعون جنازة الميت بحسب مقامه، فإذا كان غنياً ذبحوا عدداً كبيراً من الخراف يوزعونها على الفقراء ورجال الدين، وتوزع الصدقات أيضاً وفقاً لمقام المتوفي. وإذا وجدوا في طريقهم فرنجياً مسيحياً أساؤوا معاملته.

وفي الإسكندرية السجن الذي سُجنت فيه القديسة كاترينا، وفيه عمودان وعجلات ربطت عليها بغية تعذيبها، وبفضل إرادة الله كُسرت تلك العجلات عندما مسّتها. وبين هذين العمودين قطع رأس القديسة. وهناك المكان الذي تاب فيه القديس يوحنا فم الذهب[1] Boccadoro، وهناك الحجر الذي قطع عليه رأس القديس يوحنا المعمدان في سبسطية Sebastea في سجن هيرود. وعلى بعد نصف ميل من الإسكندرية كنيسة القديس أثَناس الذي قال:

"Qui cunque vult salvus est"...

---

(1) يوحنا فم الذهب (عن اليونانية: Ιωάννης ο Χρυσόστομος) 347–407 م، ويعرف أيضاً بيوحنا الأنطاكي، من آباء الكنيسة اليونانيّة وبطريرك القسطنطينية (398 م)، كان مصلحاً وواعظاً حارب فساد الإمبراطور البيزنطي فعزله وسجنه وعذّبه. له مؤلفات دينيّة مهمّة. تحتفل الكنائس الأرثوذوكسية بذكراه في 13 سبتمبر.

وهو رمز أثَناس الذي يبدأ:

“qui cunque vult salvus esse”...

وفي الإسكندرية مذاهب عديدة من المسيحيين، كما هو الحال في القدس والقاهرة، وسنتكلم عن ذلك لاحقاً. وهناك كنائس المسلمين التي تسمى مساجد، وهي خالية من اللوحات والمنحوتات، وعلى العكس فلونها أبيض. ولا توجد في أبراجهم أجراس، بل أشخاص ينادون صباح مساء عند وقت الصّلاة ويطلبون في دعائهم مباركة الله والرّسول. وهم يحتفلون نهار الإثنين المقدس عندهم[1]، ويمتنعون عن المعاصي في ذلك اليوم، ومنذ الصباح الباكر ينادي المؤذن في الناس ليغتسلوا ويتطهروا في حمّاماتهم، وعند الظهيرة يدخلون المسجد ليصلوا مدة ساعتين تقريباً.

ومساجدهم بيضاء ذات مصابيح كثيرة، وهناك بهو يتوسط صحن المسجد ولا يستطيع مسيحي أن يتجرأ بالدخول وإلاّ وضع حياته في خطر، أو يطلبون منه تغيير دينه. وعند صلاتهم يوضع المسيحيون الفرنج في مكان يدعى «الخان»[2] ويقبعون فيه بشكل متراص. أما باقي المسيحيين من المذاهب المقيمة الأخرى فيقبعون في بيوتهم حتى يخرج المسلمون من مساجدهم..

خرجنا نستكشف الأرض النبيلة لكي ننسى تعب البحر ونرتاح، ونشتري قماش الحرير بما يناسب قبر السيد المسيح، ولكي نملأ حقائبنا بالبضائع ونأخذ معنا النبيذ إلى الصحراء، وهو مشروب يحرّمه القانون في هذا البلد.

* * *

(1) هذا خطأ واضح، فاليوم المقدس الجمعة وليس الاثنين.

(2) يطلق فريسكوبالدي على «خان» اسم Cane ومعناه باللغة الإيطالية: كلب، فيقول مستهزئاً بأنه مكان يناسب الكلاب بالفعل.

10 - في طريقنا إلى القاهرة

خرجنا يوم الخامس من أكتوبر من الإسكندرية ودفعنا لذلك 4 دوقيات عن الشخص الواحد، ووضع تحت تصرفنا ترجمان وابنه، وكان سيصحبنا إلى ترجمان السلطان في قاهرة بابليون[1]. والترجمان ڤينيسي كما أشرنا سابقاً، اعتنق الإسلام.

وفي ذلك اليوم اكترينا مركباً على نهر النيل، وفي طريقنا وعلى بعد ميل من الإسكندرية شاهدنا قصوراً في منتهى الجمال تحيط بها حدائق وأراض مزروعة بالفاكهة، ويكثر فيها التمر والليمون والبرتقال والقرفة والخرّوب وتين الفرعون الذي يزرعونه 7 مرات في السنة. ولقد وجدنا في القناة عدداً كبيراً من الأخشاب، وكأنك في مصيدة سمك، وبفضلها يغمر الطوفان تلك الحدائق فتسقى.

وهناك سمك لذيذ الطعم، ولكن الزيت الذي يقلى فيه رديء جداً، وهناك فاكهة حلوة كالبطيخ الذي يزرع إلى جانب قصب السكر. وعندهم فاكهة يسمونها Muse موزة، وهي كالخيار في شكلها ولكن طعمها حلو، ويقال بأنها الفاكهة التي أغوت سيدنا آدم وعرّضته للخطيئة. وفي تلك الفاكهة أعجوبة فمن أيّة جهة تقطعها تظهر إشارة الصليب، وأوراقها طويلاً أما جذعها فهو ضخم ويذبل وينتج مرة أخرى في السنة.

* * *

(1) كان يطلق على القاهرة اسم بابليون (بابل Babylon) أيضاً في ذلك الوقت.

وهناك مدينة طولها حوالي 12 ميلاً وكلّها أراض مزروعة ومنازل. ثم تركنا مدينة تدعى مينوس[1] لندخل أرض العرب، وهي أكبر من الإسكندرية بـ 35 ميلاً وشاسعة تستطيع الخيول أن تجري فيها، وتصلح لإقامة معسكرات جيش بأكمله. خرجنا من القناة لندخل النيل من جهة جزيرة روزيتو (رشيد) والقلعة الأولى التي شاهدناها كانت في سوسا[2]، وهي تقع بين فرعي النيل، وفي الجزء الثالث منها البحر.

وعلى واحد من فروع النيل توجد دمياط، وفي تلك الجزيرة 200 منزل وهي كبيرة بحجم پراتو[3] Prato، والمدينة أكبر من الإسكندرية بضعفين وعرضها حوالي 500 ميل، وهي الأكثر بينها اكتظاظاً بالسكان. تنتج تلك المدينة كمية كبيرة من السكر والقمح والحنطة، والتمر فيها لا يحصى عدداً، وفيها بطيخ كبير وحلو كالسكر.

ولقد رأينا على ضفة النيل ثعباناً طوله 8 أذرع وعرضه كفخذ رجل متوسط الوزن، أما لونه فشديد اللمعان وظهره خشن كسمك الحفش.

يبدأ نهر النيل بالتضخم في يونيو، ويتزايد تضخمه حتى أكتوبر، والمكان الذي يفيض فيه يُزرع ويبذر، وعندما يهبط النهر يصل ارتفاعه 6 أذرع وعندما يفيض يبلغ 20 ذراعاً، لذلك فارتفاعه حوالي 14 ذراعاً، ويفيض بحسب ارتفاع السهل فهناك أماكن يطمرها فتبدو بحراً، أما الأماكن التي لا تصل إليها المياه فتروى بواسطة نواعير ذات عجلات تسيّرها الثيران فترمي الماء على الأراضي. لذلك فمن الممكن العمل وبذر الزروع، وهذا أمر جيد لأنها لا تمطر أبداً، وينضج القمح المزروع خلال 90 يوماً، ومن الممكن أيضاً الحصول على منتوجين في السنة، ولكنهم ليسوا بحاجة إلى ذلك لأن أرض مصر هي الأخصب في العالم. وساق القمح ثخين وقاسٍ.

---

(1) هي دمنهور، إلى الجنوب الغربي من الإسكندريّة.

(2) هي قلعة بلا سور وتقع في تلك الجزيرة وهي «دمياط» وسط فرعي النيل.

(3) مدينة في توسكانا تقع قرب فلورنسا.

وعلى ضفاف النهر التقينا بصبية وفتيات أعمارهم تقترب من الـ 14، وهم عراة وسمر البشرة. ولقد طلبوا منا أن نرمي إليهم بالليمون ولم يخجلوا من عريهم وهم يلمّونه. هناك فرعان يصبان في قناة واحدة ابتداءً من جزيرة روزيتو (رشيد)، وعلى كل ضفة قرية كبيرة فيها عدد كبير من السكان، وعندهم بضائع كثيرة.

ووجدنا مدينة خَرِبة كانت عامرة يوماً من الأيام واسمها[1] Teorgia وتقع عند تفرع النهر الذي يعانق روزيتو (رشيد) ليصل إلى البحر بعد قطع مسافة تبلغ 120 ميلاً، ويدور حول الجزيرة مسافة 500 ميل. وفي ذلك المكان أُخذ ملك الفرنسيين أسيراً من قبل المسلمين، وطلبوا منه 2 مليون فيوريني لقاء إطلاق سراحه، وتُرِك على دينه بعد إعطائهم كهدية[2] قربان السيد المسيح في كأس. وعند انتهاء فترة الأسر رُدّ الكأس للملك. أما الأمير وجند السلطان فتعبيراً عن نصرهم يضعون رمز الكأس على دثور أحصنتهم[3].

وبين جزيرة روزيتو (رشيد) والقاهرة على مقربة من النهر كنيسة القديس مكاريوس، وهي مغطاة بالرّصاص ويقع جثمانه في غرفة على أعمدة من الحجر.

وشاهدتُ راعي خراف يجتاز النهر مع ماشيته، وعرض النهر حوالي ميلين ونصف، ولقد عبره عارياً ووضع يقطيناً تحت ذراعه حتى الفخذ، ربطها بإحكام على جسده، وبعصا في يده مدها إلى الأمام ساق القطيع الذي عبر سابحاً من ضفة لأخرى.

* * *

---

(1) ذكرها مؤرّخو الصليبيين في أخبار الحملة الصليبية السابعة على مصر بقيادة لويس التاسع.

(2) هدية: gaggio كانت تعطى الهدية (الوسام) للجنود عندما يدخلون في الخدمة العسكرية، ومنه فعل ingaggiare الذي يعني باللغة الإيطالية الانخراط في الخدمة.. ولقد ذكر Dante هذا الأمر أيضاً في الكوميديا الإلهية: (Ma nel commensurar dei nostri gaggi (Par VI v. 118
وعلى أي حال ففعل ingaggiare في الإيطالية يقابل الفعل الفرنسي: engager.

(3) هذا غلط، فهو في رنوك المماليك رمز قديم لمفهوم «كأس الفتوة». انظر نماذجه في آخر الكتاب.

11 - الوصول إلى القاهرة

وصلنا إلى القاهرة أو بابليون، وهي شيء واحد، في يوم 21 أكتوبر، وهنا سلمنا الترجمان الذي خصص لنا في الإسكندرية إلى ترجمان السلطان. وضعنا الرجل في منزل وصلنا إليه بعد أن عبرنا قناة في النيل تبعد حوالي 3000 ميل، ومررنا بعدد كبير من مراكب المسلمين محمّلة بالبضائع، وعليها أيضاً نساء من الطبقات السفلى، وهن تاجرات يذهبن إلى الإسكندرية حتى جزيرة روزيتو (رشيد) لبيع أغراضهن.

أما الترجمان فهو ڤينيسي ارتدّ عن دينه، وهو متزوج من امرأة فلورنسية غيّرت هي أيضاً دينها وكذلك والدها. ولقد أعطيناه رسائل توصية من أصدقائه الڤينيسيين ومن القنصل الڤينيسي في الإسكندرية، ولقد رحب بهم لكنه حزن أيضاً لأنه اكتشف موت والده عبر إحدى الرسائل ولم يكن على علمٍ بذلك. هناك في القاهرة أو بابليون يعيش السلطان، ويقع قصره في المكان الذي سكن فيه فرعون مصر والمكان الذي رضع فيه موسى. لقد ولد موسى على بعد 3 أميال من القاهرة، وعند مولده وضع في سلّة من القش على النيل، وعلى ضفة النهر كانت ابنة الفرعون فأخذته وربته كما يقول الكتاب المقدّس.

12 - السلطان برقوق

في اليوم الذي وصلنا فيه القاهرة كان السلطان عائداً من الصيد، وكان قد مكث أياماً عديدة، وفي معسكر صيده 1000 جناح، وهو في منتهى الغنى والثراء.

لقد كان السلطان مسيحياً من اليونان بيع عبداً عندما كان صبياً إلى أمير حرب، وعندما أصبح بالغاً أعطاه الأمير فرساً ثم أصبح من الرجال البارزين إلى أن أصبح أمير القاهرة.

اعلموا أنّ هناك 12 أميراً في القاهرة ولكن اثنين منهم هما الرئيسيان، وللقاهرة 12 مقاطعة كما لفلورنسا 4 أحياء. وكل أمير مسؤول عن مقاطعته، وفي حوزته جنود ولا أحد يتدخل بمقاطعة الأمير الآخر. عندما أصبح الفتى أميراً صار واحداً من أعظم اثنين، وسرعان ما قضى على الآخر وأخذ أرضه ووضع السلطان في السجن مع جميع أفراد عائلته، وأدخل إصلاحات في المدينة.

وعند وصولنا إلى القاهرة كان قد انقضى على فترة حكمه سنتان، وعندما استتبّ له الأمر اتصل بالخليفة، وهو كالبابا عندنا، وطلب منه أن يثبّته ولكن الخليفة رفض، لأن القانون يقول بأن السلطان يجب أن يكون مسلماً ابن مسلم، وأب الأخير مسيحي. فسرعان ما وضع الخليفة في السجن وعيّن خليفة غيره، فثبّته. وغيّر جميع القضاة أو الأساقفة في مدينة بأسرها، وبعد ذلك أمر بتغيير دين أبيه وأخضعه للختان، فمات والده بعد وقت قصير متأثراً بجراحه وحزنه.

13 - سكان القاهرة

القاهرة وبابليون مدينة كبيرة طولها 18 ميلاً أو أكثر، وعرضها 8 أميال، ويحاذيها نهر النيل. وفيها مرفأ جيد، ويجري في النهر عدد كبير من القوارب تفوق في عددها التي شاهدتها في جنوة وڤينيسيا وأنكونا، فهي لا تتعدى ثلث ما يوجد هنا.

وهناك في الساحة القريبة من قصر السلطان باعة المجوهرات، يبيعون الأحجار الكريمة كالزمرد والياقوت والفيروز واللؤلؤ، وهناك اشترى آندريا رينوتشيني Andrea di Messer Francesco Rinuccini لزوجته بعض اللؤلؤ الكبير وقطعاً أخرى، أوصانا بتسليمها إياها قبل موته في دمشق.

بعيداً عن القاهرة مسافة 14 ميلاً على النيل من جهة بابليون 13 من أهراء الحبوب التي بناها النبي يوسف في أيام الفرعون ملك مصر يوم القحط، وهي ما زالت موجودة وشكلها مربع كالألماس، وعرضها أقدام كثيرة للوجه الواحد، وكذلك ارتفاعها. ويبعد كل واحد عن الآخر نصف ميل، ولقد غُرست في الأرض..

وكما قلت لكم، فالقاهرة مدينة كبيرة وفيها نساء يمتهنّ التجارة بين الإسكندرية وجزيرة روزيتو (رشيد) ودمياط كأي تاجر محترف، ويركبن البغال التي حُلقت ولوّنت، ولكل بغل ولد يسوقه، وكان عدد البغال حوالي 60 ألفاً. أما عملتهم فهي من الذهب أو الفضة، وهي قطع غير مسكوكة. ويطلقون على الذهب اسم بيزنطي[1]، ويساوي دوقية وربعاً من الذهب، وهم لا يتعاملون إلاّ بالدوقيات الجديدة. أما النقود الفضية فيسمّونها دراهم[2]، وهي تعادل غروسّو grosso ڤينيسياً. وهناك نقود أخرى عدا عملة النحاس غير المسكوك وهي الفولارو، و90 منها تعادل درهماً واحداً. هذا في القاهرة، أما في المناطق الأخرى فتعادل 30 أو 40 منها درهماً واحداً. وكل شيء يباع هنا يتمّ وزنه، وصولاً إلى البطيخ.

وهناك 25 ألف مسيحي معتنق للإسلام، أما المسيحيون مثلنا فهم قلّة، وعدد مسيحيي المذاهب المقيمة أكثر. وفي القاهرة عدد كبير من الجمال تُحمَّل بالأخشاب المليئة بماء النهر الذي يباع إلى سكان المدينة، وهناك 130 ألف جمل وعلى الأرض 3000 طاحون. وهناك مذاهب كثيرة من المسيحيين: مسيحيون لاتين وهم قلّة، وأغريق ونوبيّون وأردنيّون وأثيوبيّون وأرمن، ومسيحيو الحزام[3] الذين يعمّدون أنفسهم بالنار فيشعلون رأسهم وصدغهم.

---

(1) صكت في بيزنطة عاصمة الإمبراطورية ويعادل البيزنطي الذهبي فيورينو ذهبي وربع.

(2) وهي عملة إسلامية وتعادل 90 مرة الفولارو Folaro .

(3) من الغريب أن يتكلم الفلورنسي عن مسيحيي الحزام الملكيين، ولهم في القاهرة كنائس القديسة بربارة والقديسة Maria della Scala والقديس توما، فعادة الحرق تنسب إلى اليعاقبة المصريين.

ومنهم من يشعل الرأس أو الصدغ، وهم أتباع القديس توما وشمعون، واسمهم كذلك لأنّ السيدة العذراء قبل انتقالها إلى السماء أعطت حزامها للقديس توما.

هناك في القاهرة عدد كبير من الببغاوات والسعادين النسانيس وقطط الفرعون والقطط المتوحشة. أما لباس النساء فهو من الأقمشة المطرزة والمشغولة، وتحتها قطع من الرّينزا[1] rensa أو الكتان الإسكندراني الأبيض. وتلبس النساء أيضاً سراويل حتى الركب تغطيها برداء يشبه الرداء الروماني، لا يبدو منه إلا أعينهن. أما النبيلات فيضعن خماراً أسود أمام الأعين كي لا يراهن أحد، وينتعلن في أرجلهن أحذية بيضاء طويلة، ويلبسن سراويل طويلة حتى الكعب مطرزة بشكل جميل يناسب مقام كل واحدة منهن وإمكانياتهن المادية، وهي مصنوعة من الحرير أو خيوط الذهب والفضة ومرصّعة بالأحجار ومطرزة باللؤلؤ.

أما الرجال فيلبسون سراويل طويلة وينتعلون أحذية مغطاة، ويضعون على رأسهم قبعة من النسيج الأبيض، أما رداؤهم فهو أبيض من الحرير أو الكتان الخفيف. وفي بعض الأحيان يفتشوننا وكأنهم سيقطعوننا إرباً، ولكنهم سرعان ما ينفضّون بكلمة السلام عليكم ويتفرقون.

أما الأمراء الإثنا عشر، فكل واحد منهم يترأس جيشه والمقاطعة التي تقع تحت سلطته، ولا يتعدّى أحد على حقوق الآخر. أما الجنود فهم من الأتراك والتتر والعرب ومنهم من سوريا، وعدد قليل من المرتدين عن اليهودية والمسيحية من جميع المذاهب.

* * *

(1) وهي شديدة البياض ومصنوعة في مدينة رين Rheims الفرنسية وهي تصلح كأغطية للطاولات والشراشف وكذلك للقمصان وما زالت بعض النساء تدعوها Tela battista أو موسلين.

14 – الفيلة والزراف

في القاهرة فيلة كان واحد منها في بهو قصر أحد الأمراء، شُدّت ثلاث من أقدامه إلى أعمدة ثلاثة بسلاسل حديدية. ولا توجد مفاصل في أرجله، فهي قطعة واحدة ثخينة وأسفلها مدوّر وتنتهي بـ 6 أصابع، أما ذيله فهو كذيل العنزة وأذناه كجناح خفّاش وهي كبيرة كردفة الخزانة وتتدلى إلى الأسفل كأذنـي كلب. وله نابان طويلان معقوفان إلى الأعلى وكبيران، طولهما يبلغ 3 أذرع. أما أنفه فطويل يصل إلى أقدامه وهو خالٍ من العظم يتدلى إلى الأسفل، وبه يأخذ طعامه ويلفه إلى الأعلى. ولقد وجدناه يعبّ برميل ماء دون أن يتنفس، ويقذف به على بعد 15 ذراعاً ويصرخ بصوت بدا كالرّعد. أما حجمه فيبلغ حجم 3 ثيران مجتمعةً ويضع سائقه عليه قفصاً ضخماً يجلس فيه عدد من المسلمين. ولا يستطيع الجلوس وإلاّ فلا ينهض لأنه لا توجد مفاصل في رجليه.

وفي مكان آخر وجدنا زرافات ثلاث، والزرافة جسيمة كالجمل وهادئة كالنعجة وجلدها كالغزال وأقدامها كأقدام ثور، وطول أرجلها ذراعين تقريباً. أما ذنب الزرافة فكذنب العنزة وظهرها قصير وأرجلها طويلة وكذلك العنق، أما الرأس فكالعجل الصغير وأذناها كأذنـي الظبي.

15 – عادات غريبة

مدينة القاهرة الخاضعة للإمبراطورية مدينة فيها كل شيء وكل ما هو غني، فيها السكّر والتوابل وكل أنواع البضائع. وفيها ينام في العراء أكثر من 100 ألف شخص ليس لهم مأوى، وهم مستعدون للعمل وأجرهم اليومي لا يتعدّى الدرهم الواحد وكأنك تقول 4 ونصف من عملتنا. في القاهرة عدد كبير من السكان يناهز سكان توسكانا بأكملها، وهناك في المدينة عدد كبير من الطّهاة يطبخون خارجاً في الشارع سواء في الليل أو في النهار. يعدّون الطعام في أوانٍ من القصدير وهي جميلة، ولحمهم طيّب ولا أحد يضاهيهم فيه.

ولا أحد يطبخ في بيته مهما كان غنياً، فكل واحد يذهب لشراء حوائجه من البازار، وهم يسمونه هكذا. وفي كثير من الأحيان يأكلون في الشوارع حيث يفرشون قطعة من الجلد يضعون عليها قصعة الأكل يتحلقون حولها متربعين أو جالسين القرفصاء، وعند انتهائهم من الأكل يلعقون فمهم بلسانهم.. وهم لا يكتفون بزوجة واحدة ولا يأخذون المهر منها بل يعطوها إياه وفقاً لحالتهم الاجتماعية، ولكنهم لا يدفعون شيئاً بل يقسمونه يومياً وهو يتراوح بين درهم و3 دراهم. وإذا ذهبت الزوجة إلى القاضي تبغي الطلاق يعطيها الزوج المستحق من المهر ويُطلّق الزوجان، ويستطيعون فعل ذلك 3 مرات، أما بعد ذلك فتتزوج الزوجة من رجل آخر ثم تطلق لترجع إلى زوجها الأول. وللسلطان 100 زوجة بيضاء وسوداء، ولا تعيش الواحدة مع الأخرى بيضاء كانت أم سوداء، حرّة كانت أم عبدة فلكل واحدة غرفة. وقصر السلطان كبير يعمل فيه عدد كبير من الملوك، وهم ينصاعون لأوامره ويخضعون له ويذهب في بعض الأحيان عدد من أعوان السلطان ليسوقوهم ويكبلوهم بالسلاسل الحديدية كالكلاب.

يدفع المسلمون في مملكته ضرائب عادية، أما اليهود والمسيحيون فبالإضافة إلى الضريبة العادية يدفعون كل سنة أي 13 شهراً قمرياً دوقية للشخص. وسنتهم تبدأ بمحرّم وفي كل سنة يصومون شهراً قمرياً يتغير كل سنة ويمتنعون عن تناول الطعام من الفجر إلى الليل، ثم يأكلون الليل بأكمله ويبقون خارجاً في بازاراتهم فيأكلون ويرقصون ويغنون. أما في النهار فيذهبون إلى مساجدهم وصلواتهم. ومساجدهم بيضاء وفي داخلها عدد كبير من المصابيح، أما أبراجهم فهي طويلة ومحاطة بشرفات يقف عليها المؤذن ويدور ثلاث مرات حولها منادياً بالناس.. وتعرفون، المسلمون يكنّون احتراماً بالغاً لمريم العذراء وللقديس يوحنا المعمدان وللقديسة كاترينا وكل أنبياء العهد القديم، ويقولون بأن السيد المسيح باستثناء النبي محمد هو من أكبر وأهم الأنبياء، وأنه لم يلد من شخص وإنما من روح الله، ولقد تكلم في حضرة الملاك جبريل. وهم يشبهوننا كثيراً من الناحية الدينية.

16 - زيارة الأراضي المقدسة

في اليوم الـ 12 من الشهر نفسه بدأنا بزيارة الكنائس والصروح المقدّسة في القاهرة وبابليون. الكنيسة الأولى هي كنيسة الحواري توما وهي تحت إدارة مسيحيي الحزام وهي كنيسة جميلة ومباركة. والثانية هي كنيسة القديسة بربارة Barbera وشاهدنا جثمانها والثالثة كنيسة القديسة ماريّا دلاّ سكالا Della Scala وماريا دلاّ كولونّا della Colonna وهي مزخرفة وحصل فيها معجزتان: واحدة على العمود حيث يوجد نحت للعذراء، ولقد تكلمت في حضرة الأسقف والسّلطان بعد أن كان يهوديٌّ ينعتها بأشنع الصفات فردّت عليه.

والأعجوبة الأخرى تقول بأنه عند كل قداس في يوم الأحد يرون على المذبح شعاعاً يظهر. وفي هذه الكنيسة يأخذ الرهبان المسيحيون في هذا البلد مهامهم المقدّسة، والبطريرك هو رئيسهم في تلك الأرض ويأتـي خصيصاً من اليونان وهو من مسيحيي الحزام. والكنيسة الرابعة هي كنيسة القديسة ماريا دلاّ كافا della Cava حيث مكثت السيدة العذراء 7 سنوات هرباً من هيرود هرباً من بيت لحم والناصرة إلى مصر مع ابنها ولقد بنت الكنيسة القديسة هيلانة أم الأمبراطور قسطنطين، وهي التي شيدت أغلب الكنائس في تلك الأرض.

وحيث مكثت العذراء توجد سلالم تنزلها 9 درجات، وهي عبارة عن مغارة من الحجر، ويوجد في مكان القداس الآن مذبح. ولقد صلينا قدّاساً تحت رعاية حامي جبل سيناء في القدس الراهب من ڤينيسيا واسمه نيكولا، وكانت روحه واسعة وحياته مقدّسة وبعون الرب في هذا المكان المقدس ومن يديه تناولنا القربان المقدّس. لقد جاء هذا الراهب ليقيم ديراً للرهبان في وادي يهوشافاط Giosafat حيث قبر السيدة مريم العذراء، ولكنه لم يستطع.

وفي القاهرة أو بابليون كنيسة القديس مارتينو أسقف الإسكندرية حيث يوجد جثمانه، أو بالأحرى الرماد، ملفوفاً بقماش من الحرير. ولقد حملناه بأذرعنا.

وفي الكنيسة نفسها دفنت ملكة أرمينية التي توفيت عندما كان زوجها ملك أرمينية مسيحياً عند السلطان ولقد مكثنا في تلك المدينة طلباً للتعبد ولكي نبحث عن مستودعات قمح الفرعون وغرفة موسى ولكي نأخذ مؤونتنا من البضائع لنعبر الصحراء نحو أرض الميعاد.

17 - تحضيرات لرحلة سيناء

المنزل الذي نزلنا فيه كان يأتـي الترجمان ليشرب بصحبتنا، ولقد أعطيناه من نبيذنا وتركنا لنفسنا زجاجتين فقط، وكان في حوزتنا ما يقارب من البرميل. ولقد كان في المنزل كمية كبيرة من الحمام وفي غرفتي ثلاثة أعشاش، وهي وديعة جداً يستخدمها السلطان لمعرفة الأخبار وإرسال وتلقي الرسائل. وفي هذا البلد يشحّ الخشب ويعتمدون في الحصول على النار على سعف النخل وورق الحبوب وزبل الجمال الذي يخلط بالتراب وأشياء أخرى.

أما خبزهم فرديء، ولكنه أبيض كالحليب لأن قمحهم جيّد وطيب.

جهّزنا أنفسنا لعبور الصحراء، وكنا 18 شخصاً بين أصدقاء وأقارب والترجمان والجمّالين. ولقد أعطينا للترجمان 96 دوقية من الذهب للرحلة، ولقد ساعدنا على اكتراء 14 جملاً وهي متوحشة يصعب ترويضها ولا يمكنك ركوبها إلاّ في الصحراء.

والصحراء تبعد 5 أميال عن القاهرة من جهة البحر الأحمر وتنتهي بغزّة، وهي قرب القدس على بعد 3 أيام. ولقد اشترينا ثلاثة حمير لركوبها فيها بعد لأن أحصنتنا لا تستطيع عبور الصحراء فليس هناك علفٌ. ولقد اشترينا خيمة ننام تحتها في الصحراء، وتزودنا بالخل والسكر والجبن بكمية كبيرة لإعطاء جزء منها للرجال في جبل سيناء والعرب لكي لا نتعرض لسطوهم، فهذا ما أوصانا به من سلك هذا الدرب.

18 – المرتد

عندما كنا ما نزال في القاهرة تكلمنا كثيراً مع حارس جبل سيناء، وهو ڤينيسي كالترجمان وعندما علمنا أن والده توفي وعدناه بتكريس قدّاس على روحه وأن يقرأ الراهب قدّاس القديس غريغوري[1]. وأردنا أن نتكلم مع زوجته نعرض عليها مساعدتنا، فقال لنا بأنها مع كونها فلورنسية ابنة رجل مسيحي إلاّ أنها ليست مطّلعة على معتقداتنا الدينية وأولادها مسلمون، وحذّر من عاقبة الأمر وأننا سنعرّض أنفسنا للخطر، ولكنه تعهد أنه إذا استطاع بأمر من السلطان الذهاب إلى الإسكندرية ثم إلى الغرب فسيفعل ذلك بحبور.

19 – المطريّة Materia

أخذنا كل ما استطعنا حمله في جرائب من جلد الماعز، وفي صباح التاسع عشر من أكتوبر تركنا القاهرة حتى وصلنا مكاناً يدعى المطريّة[2] Materia أو Mataria، وفي هذا المكان حدائق كثيرة مليئة بأشجار الفاكهة والنخل والليمون والبرتقال والموز، وبعضهم يسمونه فاكهة الجنة كما ذكرنا سابقاً. تقع بداية الصحراء على بعد 5 أميال من القاهرة، وهنا وجدنا الجمال العربية وعددها 14 مع سائقها، ولا تستطيع الجمال الأخرى عبور الصحراء لأن هناك مسيرة أربعة أو خمسة أيام دون كلأ أو ماء. وجدنا حول القاهرة ما يقرب الـ 200 أو أكثر منها وهي تجوب الصحراء، كما أن هناك بقراً وخرافاً وماعزاً.

---

(1) يعني هذا قراءة 30 قدّاساً بعد موت أحد ما، وهذا من شأنه أن يحرر روحه (من المكان الذي تكفر فيه الذنوب وتمحى الخطايا). وهذا أمر لا يمتّ للعقيدة اللاهوتية بصلة ولكنه من معتقدات وإيمان الناس.

(2) يعتبر الرّحالون الغربيون في القرون الوسطى أن المطريّة كانت المكان الذي ذهبت إليه عائلة عيسى (عليه السّلام) هرباً من بطش هيرود. والمطريّة أحد أرباض القاهرة قديماً، صارت اليوم أحد أحياء محافظة القاهرة وضمن أحياء المنطقة الشرقية. وكانت المطريّة أحد أقسام مدينة هليوبوليس، بمثابة المركز الديني والعلمي لمصر.

والثيران في هذا البلد كبيرة وسمينة، وكذلك الخراف ولأغلبها 4 قرون، أما ذيولها فمدورة وتحتوي على كمية كبيرة من الدهن تساوي تلك الموجودة عند الخنزير، وهم يستعملونه أيضاً في الطهو. أما الماعز فآذانها متدلية وطويلة كالكلاب وهي تلمس الأرض عندما تأكل.

وحول القاهرة من جهة الجنوب يزرعون العدس والفول والطماطم والخيار والفاصولياء. وهذا المكان المدعو Mataria هو المكان الذي استراحت فيه السيدة العذراء عند قدومها القاهرة، ولما شعروا بالعطش ضرب المسيح الأرض بقدمه فخرجت ماء عذبة وغزيرة. وبعد أن استراحت العذراء غسلت ملابس وليدها الطاهرة ووضعتها على شجيرات صغيرة لتجف.

وما زالت تلك الشجيرات إلى وقتنا هذا، ويخرج منها بلسم يشفي. ولقد فطن السلطان لهذا فجعل المكان من خاصة حدائقه وسوّره وأقفل عليه بالمفتاح. ولقد قال لنا المترجم ويدعى إلياس بأننا نستطيع رؤية الزرع وأخذ البلسم الذي يُجمع بتلك الطريقة: تنزع الوريقات التي تشبه ورق الريحان، وعند نزعها يخرج سائل أبيض يشبه السائل الذي يخرج من التين عند قطعه، ثم يجمع في وعاء من الخشب ويُضغط بالأصبع لملئه في قوارير. ويحتاج الأمر لوقت وجهد وكمية كبيرة من الأوراق لجمع قارورة صغيرة، لذلك فلقد مكثنا النهار بأكمله، وللسّيمونيا[1] Simonia ملأنا كل ما استطعنا. وهكذا فعل أصحابي.

وفي هذه الحديقة تين الفرعون وساقه فيها انخفاض. وهو المكان الذي وضعت فيه العذراء ابنها بغية نشر الملابس لتجف. ومن الملاحظ أنه لا يوجد في القاهرة مكان آخر فيه ماء. فمن هذا المكان تسقى الأراضي وتحرث بمحرات يعلق في الثيران. وهم يتوقفون عن العمل السبت وقت الغروب وحتى الاثنين صباحاً.

---

(1) السّيمونيّة (نسبة إلى شمعون السّاحر): هي الحصول على رتبةكهنوتيّة بغير استحقاق عن طريق الرّشوة. وهذه البدعة انتشرت بين رجال الكهنوت في الكنيسة الكاثوليكية بأوروبا في العصور الوسطى. ويبدو أنه يعني رغبتهم بالحصول على الغفران بتقديم هذا البلسم.

تزوّدنا بالمؤن في هذا المكان، وفي المساء ملأنا القِرب المصنوعة من جلد الماعز بالماء وحمّلناها ظهور جمالنا. وركبنا بعون الله متجهين نحو البحر الأحمر لنأخذ طريقنا إلى زيارة كنيسة القديسة كاترينا. سافرنا في يوم 22 من الشهر نفسه، وفي طريقنا لم نجد أية شجرة أو نبع ماء، ولم تشرب الجمال أو الحمير التي اشتريناها مؤخراً، فكان لا بد من سقايتها ففعلنا.

20 - نبع موسى

وصلنا مساءً إلى نبع موسى، وهو المكان الذي ضرب فيه موسى الحجر فخرجت الماء منه وكان مع أخيه هارون، فسقى كل شعب إسرائيل والحيوانات، وذلك عند خروجهم من مصر أيام الفرعون.

وعند وصولنا إلى هذا المكان شربنا مع جمالنا وحميرنا وتركنا ملابسنا وأحذيتنا ودخلنا الماء، وبكل خشوع نظفناه من الأوساخ التي عقلت به. وهناك شاهدنا قافلة كبيرة من المسلمين المحمّلين توابل من الهند فطلب منّا الترجمان الابتعاد مباشرة حوالي نصف ميل، ولو أننا لم نبتعد لكانوا اعتدوا علينا بالأذى فعددهم يفوقنا بـ 20 شخصاً. ولقد رحلوا في صباح اليوم التالي.

أما نحن فملأنا ماءنا وقفلنا سائرين نحو جبل سيناء. سرنا حتى 25 أكتوبر عابرين جبالاً، وهناك وديان قليلة، ولقد اعترض طريقنا أكثر من مرة عدد من النعام وهي كثيرة في هذه البلاد. ثم وجدنا ماءً في وادٍ فنصبنا قربه خيمتنا وسقينا جمالنا وكانت بحاجة إلى الماء فالبلد حار جداً، وليس هذا بغريب فالمطر لا يتساقط أبداً، وشربت جمالنا مقداراً كبيراً من الماء. مكثنا الليل إلى الصباح وهنا استيقظ الجمّالون واغتسلوا بالماء وحمّلوا الجمال. من الجدير بالملاحظة أنهم لا يدعون أحداً يركب الجمال في الليل، ومن يقتني حماراً يمشي على قدميه وعندما تركب في الصباح لا تستطيع التوقف وإذا أردت التبول تفعل ذلك وأنت تسير لأنه لا يُسمح بالتوقف إلاّ عند المغيب.

وهم على معرفة ودراية بالصحراء، فنظراتهم تدل على أنهم يعرفون كيف يسيرون وعيونهم مغمضة كربّان السفينة الذي يعرف كل صخرة يتجنّبها وكل وجهة يسير فيها. ومن الملاحظ أيضاً أن تلك الجمال مع كونها متوحشة لا تُلجم لكي تسرع في السير، ولا يصيحون بها ولا يضربونها بالسوط، وعندما يغني لها بعض الجمّالين أغنياتهم تفهم ماذا يجب أن تفعله وتسير في طريق دون أخرى، سواء كان ذلك في الصباح أم في المساء. وطبيعتها هادئة، فيكفي أن تربت على عنقها حتى تنوخ مباشرة وهي تحني أرجلها الأمامية أولاً ثم الخلفية، ويكفي أن تربت على عنقها من جديد لتجعلها تقف.

وهي تحبّ أن نلمسها برفق، لذلك فهي تحمل أحمالاً ثقيلة دون أن تتعب، فهي حيوانات رقيقة حساسة وطيّعة. مشينا يوم الـ 25 من أكتوبر في سهل مليء بالحصى الملون الأملس وهي سوداء شديدة اللّمعان ولقد جمع بعضنا عدداً منها. وسرنا اليوم كله إلى أن عثرنا على الماء، فتوقفنا لنشرب نحن وركائبنا، وملأنا قِربنا وركبنا مرة أخرى في صباح اليوم التالي.

وهنا سمعت صيحات عالية جداً، وكأن الأرض قد زلزلت، وشاهدنا أشخاصاً يركضون نحونا وهم شبه عراة، ولم يكونوا مسلحين بل كان مع بعضهم عصي كالقصب في طرفها حديد، وبدو هزيلين ولونهم أسود وكأنهم الموت. ولقد قال لنا الترجمان ألا نخاف منهم، فهم عرب أتوا ليأخذوا بعض الخبز، فأعطيناهم وذهبوا دون أن يتعرّضوا لنا. يعيش هؤلاء في فقرٍ مدقع وليس عندهم مكان يلجؤون إليه، وهم لا يعملون ويرأسهم قبطان يعلّمهم السطو على بعض الأماكن.

* * *

21 - لقاء حجّاج آخرين

سرنا في اليوم التالي في سهل كثير الرمال، والتقينا بقافلة حجّاج فرنسيين لطفاء، منهم خمسة من فرنسان الترسانة الذهبية. ولقد سألونا مشدوهين فيما إذا تعرّض أحد منا للموت، فقلنا بأن راهبنا قد انتقل إلى السماء في مودونا على بعد 1000 ميل من ڤينيسيا. فقالوا لنا إنهم كانوا 20 فارساً مات منهم 11، ولقد دُفنوا في الرمل.

والمكان الذي كنا فيه مليء بالحصى الذي تشتد حرارته تحت أشعة الشمس، فيرفع الهواء المحمل بالرمل فوق الحصى وعند اشتداد الريح ينتقل الرمل من مكان لآخر، ومن يعترض طريقه يموت. وهذا صحيح، فعندما كنا ننصب الخيام نجد الرمل صباحاً وقد غطى أنوفنا وآذاننا وأعيننا وليس لدينا الماء لنغتسل، وهناك على بُعد كنا نرى الماء وكأنه قطع من السطوح الحادة البرّاقة. وكنا نشعل النار في الليل في جذوع بعض الشجيرات وندع الجمال تأكل منها. وفي تلك الأودية صادفنا بعض الحيوانات كالأرانب والذئاب، وهي أصغر من التي نعرفها. وهناك عدد من النسور والصقور، أما الذئاب فتعيش على من يموت من الحجّاج في الصحراء.

ولم يكن هناك نوع آخر من الأشجار سوى تلك التي تشبه ثمارها الخوخ الجاف، وهي تنبت قرب الماء. وليس هناك لا بيت ولا شيء يظلّلك، ونظراً لشدّة الحرّ ولأنها لا تمطر أبداً فلا تحجبك الغيوم وإنما تقع تحت رحمة الشمس، وإذا وجدت ماء في بعض المرات فهو حار ولا يتحرك، ولقد ساعدنا الرب وحملنا معنا كميّة من الليمون كنا ننعش أنفسنا به.

* * *

22 - الوصول إلى جبل سيناء

في الـ 28 من هذا الشهر وصلنا إلى الجبال المقدسة، وهنا خبأنا كميّة من الخبز، وبدأنا نقترب من الشاطئ حيث وجدنا عدداً من الينابيع وجمعاً من العرب، رجالاً ونساءً وأطفالاً ومعهم حيوانات كالخراف والماعز. أما الناس فليس لديهم مأوى يلجؤون اليه بل مغاور حجرية، وليس عندهم متاع وبيوتهم عبارة عن قطع من جلد الصوف يتخذونها من خرافهم فتبدو وكأنها قطع من الزيزفون، يحيكونها فيبلغ طولها 4 أذرع ويضعونها على هياكل من الأغصان يغرسونها في الأرض أنصاف دوائر، وتحتها يقبع الرجل رب الأسرة وزوجته وأولاده ومعهم الحيوانات والكلاب. في الـ 29 أكتوبر وصلنا سهل جبل سيناء حيث استوطن بنو إسرائيل زمن موسى، وهنا وجد موسى نور لا ينطفئ. وطلب منه الملاك أن يخلع حذائيه عندما يدنو. وفي ذلك الموضع بنيت الكنيسة للقديسة كاترينا حيث دخلنا، وطلبوا منا ترك أمتعتنا في الداخل. ولقد صلينا في كل زاويه من الكنيسة، ثم أعطوا كل واحد منا كأس نبيذ وخبزاً وسمكاً مملّحاً من صيد البحر الأحمر. وكدليلٍ حضر راهب اسمه جوڤانـي دي كانديا يدلنا في جبل سيناء، ولقد ساعدنا على تسلق الجبل والمناطق حوله.

23 - كنيسة القديسة كاترينا

في المذبح الرئيسي لهذه الكنيسة جسد القديسة كاترينا، وفي طرفه العلوي صندوق من الرّخام مغطى بقماش ذهبي، ويحتوي هذا الصندوق على رأس القديسة وقطعتين من ذراعها، وخلف المذبح كنيسة صغيرة فيها جثمان القديس يوحنا Crimaco ومنه يخرج سائل أبيض عبر ثقب. وهنا كان علينا خلع أحذيتنا كما فعل موسى عليه السلام. ومن أذنـي القديسة كاترينا أيضاً يخرج سائل أبيض تروى عنه الأعاجيب، ولقد أعطانا الأسقف قارورة تحوي السائل ثم أعطانـي قارورة أخرى لي.

ولا يزين رأس القديسة شيء، وعلى العكس فهي بسيطة، ولقد جعلني الأسقف ألمسها وأقبّلها وأنا أصلّي. وأما الكنيسة الأخرى فللقديس يوحنا المعمدان، وهناك عدد آخر من القديسين منهم القديس كليمنت Clemente والقديس نوفريو ولكننا لم نستطع رؤيتهما، والثالثة للقديس يعقوب Jacopo الحواري. وهناك عدد من الكنائس الصغيرة المحيطة. والكنيسة مزيّنة وليس فيها أجراس، ويحيط بها جدار كبير وعالٍ كالجدار المحيط بفلورنسا ولكنه أجمل وأدق صنعاً. وبين الحائط والكنيسة عدد من الكنائس الصغيرة، منها كنيسة القديس إسطفان الشهيد.

24 – رهبان جبل سيناء

يرأس الكنيسة الإغريق، وتخضع لرعاية أسقف نصّبه بطريرك القاهرة والإسكندرية، وثبّته سلطان بابل (القاهرة). ويساعد الأسقف 200 شخص فيهم 150 في تلك الكنيسة يقومون على خدمتها، ولكل منهم مسكن وهم أتقياء جداً يضعون على صدورهم صليباً من الخشب الأسود، ولقد حصلت من أحدهم على صليبه.

ومن عادتهم بعد صلواتهم أن يقوموا بالأعمال اليدوية كزراعة الحقل وخياطة الملابس، وهي من النسيج الغليظ. أما الـ 50 الآخرون فيمكثون بأعلى الجبل حيث سلّم الله النبي موسى صحائف العهد، وهناك توجد كنيسة سيدة الرحمة مريم كما سنرى لاحقاً. وهم يعيشون بنفس الطريقة لا يأكلون اللحم أو يشربون الخمر. وهناك مسجد للمسلمين أيضاً وفي هذا المكان عدد من الأعراب البدو يعيشون ككل مناطق الصحراء بلا مأوى أو عمل، ولهم كهوف وماشية هزيلة تقتات على أشجار الخوخ الصغيرة، لكن عندهم كثير من الماء. وهنا عاش بنو إسرائيل ويسمي المسلمون هذا المكان الجبال المقدسة وعددهم حوالي 1000 نفس، وكل يوم يوزع الأسقف عليهم رغيفاً من الخبز لكل شخص.

يكتظّ هذا المكان بالكثير من المسيحيين والمسلمين والحجّاج الأغنياء الذين يتبرعون ومنهم من يأتـي من كريت وعندهم الماء الكثير وهناك طاحون وفرن ويساعدون الحجّاج في رعاية حيواناتهم بقوة سواعدهم ويساعدوهم على تسلق جبل سيناء وهناك نبع ماء خارج الكنيسة في الطرف الأعلى قد تفرعت عنه ينابيع عديدة استخدمها العرب وجعلوا قربها حدائق.

25 – القديسة مريم Santa Maria della Piaggeria

بعد تسلق صخور عديدة توجد كنيسة القديسة مريم della Piaggeria.. ولقد سميت بهذا الاسم عقب حدث حصل في زمن بعيد تعرّض فيه الرهبان إلى غزو الحشرات والزواحف مما جعل إمكانية بقائهم مستحيلة، لذلك قرروا ترك المكان وتسلقوا الجبال فارّين، وعند منتصف الطريق استوقفتهم سيدة جميلة سألتهم وجهتهم فرووا عليها مصابهم، فوعدتهم إن هم رجعوا أن يُنظف المكان على أن يتعهدوا بالتوبة من ذنوبهم لكي يطهر المكان. لم تكن تلك المرأة سوى السيدة العذراء، وعند رجوعهم وجد الرهبان عدداً من الجمال المحمّلة بالبضائع وظهر شاب، فسألوه عن مالك البضاعة فقال لهم بأن سيداً اشتراها وأوصاه بحملها إلى هذا المكان. وعند وصوله وجد صورة تمثل النبي موسى، فبدأ يصيح قائلاً: ذلك هو السيد الذي أوصانـي بنقلها، وودّ فوراً باعتناق المسيحية.

26 – كنائس صغيرة أخرى

صعوداً يوجد قوس لا يمكننا عبوره، قالوا لنا بأنه المكان الذي عبره موسى. وفوق ذلك بقليل يوجد قوس آخر تحته طلب إيليا التوبة، وهناك كنيسة صغيرة. وهنا أحضر الطائر لليسع الخبز السماوي وكلّمه الله. وقريباً منها كنيسة السيدة مريم Uziaca.

وصعوداً على قمة الجبل يوجد مقعد عالٍ منه كلّم موسى الله، ولم يستطع النظر إليه، فرفعه عن هذا المقعد وأعطاه كتاب العهد ليحكم شعبه. وهناك على جانب المقعد كنيسة صغيرة فيها أجساد قديسين كثر، منهم اليسع. وهناك المكان الذي جلس فيه موسى وكلّم الله، ويبدو المكان وكأنك تقف في الهواء من أي جهة نظرت، وهو يشعّ نوراً. وهناك أدراج يبلغ عدد 14 ألف درجة قبل أن تصل إلى جسد القديسة كاترينا، والدرجات شديدة الانحدار.

27 - جبل العجل الذهبي

ولقد صعد موسى الدرجات وبعض أتباعه، وهناك أماكن يصعب تسلقها لشدة انحدارها، وهي على شكل عجل من الحجر. وفي هذا الموضع وضع شعب إسرائيل العجل الذهبي، وذلك عندما ألقوا خواتمهم في النار وبقوة شيطانية تحوّلت إلى عجل فعبدوه كإله. وهنا مكث بنو إسرائيل في هذا المكان وتغذوا مما أغدقته السماء.

وعلى الجزء الآخر من الجبل المكان الذي وضعت فيه الملائكة جسد القديسة كاترينا بعدما رفعوه من الإسكندرية حيث عُذبت وقتلت. وعند وصولنا أسفل الجبل هناك كنيسة تدعى باسم سيّدة الرحمة مريم. وفي هذا المكان انطلقت الأسباط التي تمرّدت على الإرادة الإلهية وتشتّت 11 سبطاً من أسباط بني إسرائيل في تلك الجبال المقدسة مسافة 3 أميال إلى أن جاءتهم رحمة الله، فسمّيت تلك الكنيسة بكنيسة الرّحمة. وعلى ذلك الجبل أعطى الله موسى كتاب العهد، وهو يبعد 6 أميال.

وفي الكنيسة عدد كبير من الأجساد المقدّسة المدفونة، وهناك في الخارج بستان نضر فيه مزارع زيتون وتمر وتين الفرعون وبرتقال وعنب، وفيه 3 ينابيع ماء تجري مياه تسقي الأشجار والعشب، ولولا هذا الماء لجفّت الأرض لعدم هطول الأمطار لفترة طويلة.

وفي خارج الكنيسة رواق ومكان للصلاة، وهناك تاب القديس نوفريو ومكث 40 يوماً وليلة صائماً عن الأكل والشرب وجاء القديسان پاولو وأنطونيو عدة مرات لزيارته، وهنا أيضاً انتقلت روحه إلى الله. هذا ولقد استقبلنا رهبان الكنيسة ببشر، وجاء معنا اثنان منهم مع الراهب جوڤانــي دي كانديا وراهب سانتا كاترينا لوعظنا من تعاليم الحياة. كما نصحونا بترك أمتعتنا الثقيلة عندهم لنصعد الجبل. وهنا بعون المسيح والقديسة كاترينا بدأنا نصعد الجبل متجهين إلى المكان الذي وضعت فيه الملائكة جثمان القديسة، فحفر مكانه على الصخر، وهذا المكان يبعد 7 إلى 8 أميال.

29 – المكان الذي وضعت فيه الملائكة جسد القديسة كاترينا

قبل الوصول بنصف ميل وجدنا مكاناً منبسطاً جلسنا نستريح فيه، وفيه شقوق كثيرة لولاها لما استطعنا التسلق فالهاوية تحته خطيرة جداً. أمّا الرهبان فسبقونا، وتلك الأحجار كانت شديدة السخونة بسبب شدة حرارة الشمس وكأنها قطع من الجمر، وليس هناك معبر آخر نستطيع أخذه للوصول إلى القمة. وقرب القمة وجدنا المكان من الصخر المحفور على هيئة جسد، وهنا انبعثت رائحة زكية جداً، وكانت الرياح شديدة نظراً للارتفاع الكبير. ويطلّ المكان على جميع الجهات، أما الحجر فقد قُدّ وكأنه من الشمع المائع. ولقد ظل الجسد ما يقارب 500 سنة قبل أن يُنقل. وأخذنا من هذا الصخر حجارة صغيرة قيل لنا بأنها تشفي من الحمّى. ويشرف هذا المكان على البحر الأحمر الذي يبعد 15 ميلاً، ويبدو وكأنه من الدّم، وهذا ليس لأن الماء حمراء ولكن لكون الرمل شديد الاحمرار. وفي البحر عدد كبير من المراكب الشراعية، وهي ترجع محملة بالتوابل من الهند ثم تنطلق القوافل من القاهرة وتعبر النيل إلى الإسكندرية، وهناك طرق تؤدي إلى دمشق. عدنا من الجبل لنصل إلى كنيسة سيدة الرحمة مريم، حيث بوركنا، وهذا ما يفعلونه لكل من يتسلق الجبل.

30 - صلاة وعشاء مع أسقف جبل سيناء

هناك مكان أيضاً حوّل فيه موسى العصا إلى ثعبان، ويقال بأنه من ينظر إلى ذلك المكان تذهب عنه أي علّة. رجعنا إلى كنيسة القديسة كاترينا في ذلك المساء من 30 أكتوبر. وفي الصباح وهو اليوم الذي يسبق ليلة ذكرى جميع القديسين أعطينا الرهبان بعض الخبز والأرز ومأكولات أخرى مما تموّنا به من قاهرة بابليون. وبعد ذلك صلّينا مع أسقف الكنيسة والرهبان وكانوا يكررون ترنيمة[1] Kirie eleyson وهي بلغتهم الإغريقية. وهم لا يتناولون الخبز والنبيذ مجتمعين ولا حتى «الخبز العظيم» ولكن يستخدمون الخبز المخمَّر، ويقيمون القداس في كنيسة ويقدسون الخبز في مكان آخر ثم يحضروه إلى الكنيسة فيتناولها الأسقف ثم الرهبان. وفي ذلك اليوم تبعنا طقوسهم وزرنا جميع الأماكن المقدسة في الكنيسة وخارجها.

31 - مغادرة جبل سيناء

في صباح يوم 2 نوفمبر تركنا المكان المسمى بالجبال المقدسة، وهي تبعد عن المكان الذي نزل فيه على النبي موسى كتاب العهد، وحيث جسد القديسة كاترينا مسافة 13 ميلاً، وهذا ما نقوله في الصلاة:

«Deus qui dedisti legem Moysi in summitate montis Sinay, et in codem loco pro sanctis suis Angelis..».

سرنا باتجاه المكان الذي تركنا فيه أمتعنا، ومشينا مسافة دون أن نجد ماء مع أننا تزوّدنا منه عندما كنا في الكنيسة، وهو ماء عذب. ثم وجدنا ماءً عكراً سقينا منه دوابنا. ومشينا 4 أيام أخرى دون أن نعثر على ماء، وعندما وجدناه توقفنا للشرب، ثم توجّهنا نحو أرض الميعاد.

---

(1) باليونانيّة: Κυριε ελεησον كيرييه إليْسون (يا ربّ ارحم) من الإنجيل في قصّة العاصفة عندما ركب الحواريون مع المسيح ببحر الجليل وخافوا من الغرق. وأصلها آراميّة: «رَحمَنَخْ يا آلو».

32 – خيانة المترجم

في الساعة التاسعة صباحاً تركَنا ترجماننا قائلاً للجمّالين: «اذهبوا وسألحق بكم». فاعتقدنا بأنه يريد أن يحتال علينا، وقلنا له بأن هذا ليس من شيم الكرام. فقال لنا: «لا تخافوا، فعندكم رسالة توصية من السلطان وتبعدون مسافة يوم ونصف عن مدينة غزّة، وهناك ملك يتبع السلطان». وفعلاً تركنا والتحق بنا في المساء. وفي الليل وجدنا ناراً موقدة ونقصنا الماء، وفي الصباح مشينا، وفي الساعة الثالثة وجدنا آثار خيل، وبعد قليل شاهدنا عصبة من الناس مدجّجين بالسلاح ومع أحدهم قطعة حديد، فقلت للترجمان: «لقد خنتنا».

وأعطيت Antonio da Pescia وهو أحد أقربائي سيفي، فقال الترجمان: «لا تخافوا هذا من جند العرب ويريد أن يرى كتاب التوصية»، وهذا ما طلبوه، فاحضرتُه لهم، وكان في حقيبتي مع عدد من كؤوس الفضة والملاعق وأشياء خفيفة أخرى، فسرعان ما حاولوا مصادرتها ولكني دافعت عنها، فبدؤوا بضرب الجمال فتفرقت. فقلت للترجمان: «أعرف أنني سأموت اليوم، ولكن قبل ذلك سأقتلك لخيانتك». ونزل من يحمل قطعة الحديد من على حصانه وتكلّم الترجمان معه وتوسّل إلي أن أرجع السيف مكانه لكي تسلم أغراضي، فقلت لهم إننا كلنا جميعاً أصدقاء وأريد استرجاع أغراض رفاقي، وما يحصل لهم يحصل لي. ولكي يكفّوا عن مضايقتنا اضطر الرفاق إلى دفع 22 دوقية فابتعد العرب آخذين معهم بعض الحوائج، ولكنهم لم يأخذوا شيئاً مني ولا من أقربائي.

33 – الوصول إلى غزة

حمّلنا الجمال وتابعنا سيرنا ووصلنا مساءً إلى نُزل وهو خان قريب من غزّة، ولقد استغرق كل ذلك 10 أيام من كنيسة القديسة كاترينا إلى غزة، وهي على الحدود مع مصر ومن أرض الميعاد. ويوجد في هذا المكان ملك و تحت إمرته 4 ملوك، واحد منهم ملك القدس.

وفي هذا المكان من غزّة ألقي القبض على شمشون الذي رفع الأبواب من مكانها وتسبّب في وقوع القصر الملكي عندما شدّ الأعمدة التي كبّلت يداه عليها ومات كل من كان بها فيهم شمشون. لقد اتجهنا إلى الخان ومكثنا فيه ثلاثة أيام، وذهب ترجماننا خارجاً يقول بأن الترجمان الكبير قد أساء معاملته وأنه يطلب منه الاعتذار فأعطيناه 12 دوقية.

34 - مقابلة مع ملك غزة

لقد جرت العادة على أن يلتقي الملك الحجّاج وأن يستقبل مندوباً عنهم، فذهبت أنا مع أحد رفاقي وكان قصره فخماً جداً وكبيراً، وهناك باحة كبيرة خارجية فيها باب عليه حرّاس كثيرون، وعلى سطح القصر عدد كبير من طيور السّنونو لم أر أكثر منها في توسكانا كلّها.

وهناك داخل القصر صالة كبيرة فيها الملك[1] وحاشيته وأتباعه، ويجلس على السجّاد متربعاً، ومن يذهب للاجتماع به لا يدخل القصر ولكن ينتظر في البهو. وبين القصر والبهو نوافذ كبيرو مسوّرة بالحديد، وهي تشبه المكان الذي تسكّ فيه النقود في فلورنسا، ومكان الملك يعلو البهو بذراعين، وفي الخارج ينتظر الترجمان مع الحجّاج. ويطلبون منك أن تقبّل الأرض، ثم يسألنا الترجمان ما يريده السلطان ويترجمه إليه فيقول السلطان رأيه. وفي كثير من الأحيان يطلب الملك تحويل الحجّاج إلى القاضي وهو أسقف المدينة، وبعد أن يجلسك يسألك. أما نحن فلقد أحسن ضيافتنا وقدّم إلينا الفاكهة ومأكولات أخرى.

* * *

(1) عبارة فريسكوبالدي ينبغي ألا يُفهم منها أن غزّة كان فيها بعهد المماليك ملك، بل نائب يتبع نائب دمشق الذي يُسمّى آنذاك: ملك الأمراء، وكان نائب دمشق أهم نوّاب السّلطنة خارج العاصمة القاهرة. أما لقب الملك بالإجمال فكان يُطلق على السّلطان نفسه.

35 - من غزة إلى الخليل

في 19 نوفمبر تركنا غزة إلى أرض الميعاد نحو وادي Abor وهي الآن أرض النبي إبراهيم. تركنا مدينة الرّامة حيث قتل شمشون الكثير من الفلسطينيين Filistei بفكّ حمار كما يروي العهد القديم.

مشينا في اليوم الأول في مكان مهجور، وفي المساء وصلنا إلى خان يقال بأنّ امرأة من فلورنسا بنته. بتنا الليلة الأولى ودفعنا درهماً عن الشخص، وفي الصباح تركناه لنسير في منطقة مهجورة. وفي منتصف النهار وصلنا إلى وادٍ فيه شجر برّي، وهنالك كنيسة صغيرة أنشأتها القديسة هيلانة، وفيها مكث القديس يوحنا طالباً التوبة. ثم وصلنا مساءً إلى الحقل الدمشقي حيث اختار الله النبي آدم أب الناس جميعاً.

وفي المساء رجعنا إلى نُزل في أرض النبي إبراهيم، وهي أرض جميلة وفيها بضائع كثيرة ومصنوعات زجاجية متميّزة، وهذا المكان مقدّس أيضاً عند اليهود والمسلمين. ويحتفل المسلمون في شهر أكتوبر لمدة 3 أيام(1)، وهو عيد للنبي إبراهيم عندما أراد التضحية بابنه إسحق. وعند المسلمين صيام شهر قمري واحد، وهو الهلال الأول لشهر أكتوبر وعند الهلال التالي يحتفلون.. وفي شهر الصوم لا يأكلون ولا يشربون ولكن في الليل يأكلون اللحم ويحتفلون.

وفي هذا المكان مسجد كان كنيسة، وهناك حائط كان فيه المذبح، ولا يمكن لأيّ مسيحي أن يدخل، أما إذا دخل فعليه أن يغيّر دينه وإلا قُتل. وفي هذا المكان جسد آدم وإبراهيم وإسحق ويعقوب، وهناك قبر آخر فيه زوجاتهم حواء والأخريات(2). ومن القبور أخذنا الزيت المقدّس.

* * *

(1) ابل 4 أيام، وهو عيد الأضحى، ولا يصادف في شهر أكتوبر تحديداً، بل حسب ما تصادف الشهور القمرية ما يقابلها من شهور شمسية.

(2) الشائع في التراث الديني المتواتر أنهم مدفونون في الخليل مدينة القبور.

36 - بيت لحم

ذهبنا يوم 26 نوفمبر إلى بيت لحم، ورأينا مسجداً كان كنيسة فيها تطّهر آدم من ذنوبه. وفي ذلك المكان ولد ابنه شيث Seth. وعلى بعد 6 أميال المكان الذي عبد فيه إبراهيم الله الواحد. وصلنا بيت لحم حيث ولد السيد المسيح، وهناك كنيسة كبيرة وجميلة ومباركة، فصلّينا وشعلنا شموعاً وهي عادة الحجّاج. وهنا بدأنا بزيارة الأمكنة المقدسة. هناك المكان الذي تاب فيه القديس جيرونيمو حيث ترجم الإنجيل من العبريّة إلى اللاتينية وحيث دفن. ولقد أخذنا عدداً من الحجارة، وقد أوصانا بذلك عدد من الناس الذين توسلوا إلينا أن نجلبها لهم، منهم الراهب Maestro Remigi وهو روميتانـي Romitano.

وعلى الجهة الأخرى رُميت جثث أطفال عديدة قتلهم هيرود. ثم دخلنا الكنيسة وعلى الجهة اليمنى المكان الذي طُهّر فيه المسيح، وهناك كنيسة صغيرة على طرف المذبح الرئيسي وعلى طرف المذبح الآخر المكان الذي أهدى فيه ملوك المجوس الذهب والبخور والمرّ عند ولادة المسيح حيث هدتهم النجمة إلى مكانه قبل أن تختفي. وتحت الأرض كنيسة أخرى. وفي ذلك المكان ولد السيد المسيح، وعلى بعد 4 أذرع و3 درجات نحو الأسفل المكان الذي ولد فيه بين معلف الثور والحمار. وفي الخارج كنيسة القديس نيكولو حيث أرضعت السيدة العذراء وليدها قبل هروبها إلى مصر. ونحو الأسفل كنيسة صغيرة فيها ظهر الملاك على يوسف قائلاً: خذ المرأة والطفل إلى مصر وأظهر له الطريق في الليل.

ومن الناصرة وعلى بعد ميلين كنيسة أخرى كبيرة ولكنها مهدّمة، هنا ظهر الملاك على الرعيان وأعلمهم بقدوم المسيح وأظهر لهم مكانه في بيت لحم فذهبوا إليه. وفي هذا المكان قتل داود جالوت. لقد مكث داوود في بيت لحم حيث نصّب ملكاً النبي صموئيل. وعلى بعد ميلين ونصف من بيت لحم دُفن الأنبياء الـ 12، وفي ذلك المكان قال المسيح وكان طفلاً بأنه لو كان للحجارة أفواه لنطقت تشهد عليه، فتحولت الحجارة إلى ألسنة وما زالت إلى الآن. وهناك نبع ماء يعبر المدينة يصل إلى القدس، يستطيع الحجّاج الشرب منه.

37 - نحو القدس

توجهنا نحو القدس يوم 22 من ذلك الشهر. وفي ذلك المكان كانت العذراء حاملاً وتعبة عند توجهها نحو بيت لحم لتلد فتوقفت لتصلّي، وكان هناك رجل يزرع الحمّص، فسألته: «ماذا تزرع؟»، قال: «أزرع حصى» فقالت: «ليكن كذلك!». وهكذا ما زال حتى اليوم على هيئة الحصى. وتوجهت السيدة العذراء بعد ذلك إلى بيت لحم.

ولم يكن هناك شيء في هذا البلد وبدا مهجوراً إلاّ من بعض الهياكل والحفر. وشاهدنا الكنيسة التي بنتها هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين، وهي تابعة للفرنج من نفس ديننا، وتقع تحت إشراف رهبان القديس فرنسيس. وفي الكنيسة عدد من الكنائس الصغيرة التابعة لمسيحيي الحزام واليعاقبة[1] Jacopini والمسيحيين الإغريق.

وفي هذا البلد عدد كبير من المسلمين، وهم يكنّون احتراماً وتبجيلاً لسيّدتنا، ويشعلون أنواراً كثيرة صباحاً ومساءً، ويموّلون الرهبان في معيشتهم ومصاريفهم، ويبدون وكأنهم من المسيحيين.

بيت لحم مكان جبلي، وهو ليس خصباً ولا جافاً بل فيه بعض أشجار الزيتون. باتجاه القدس كان هناك كنيسة فيها 12 أنشودة Canti تيمّناً بأسباط اليهود الاثني عشر. وهناك برج صغير مكث فيه إيليا طلباً للتوبة بعض الوقت قبل أن يذهب إلى جبل سيناء. وهناك نزولاً إلى القدس صهريج يتجمع فيه الماء. وهنا أيضاً رأى المجوس النجم الذي دلّهم إلى ديارهم عبر طريق لا يمرّ بالقدس خوفاً من هيرود. وفي ذلك اليوم وصلنا القدس في ساعة متأخرة من الليل فنزلنا في مشفى يلجأ إليه كل الحجّاج، وهو قريب من قبر المسيح.

(1) أتباع الملّة المسيحية التي أنشأها يعقوب البرادعي Giacomo Baradeo أسقف مدينة الرّها Edessa وفي القرن السادس انفصلت عن المونوفيزيت (المعتقدين بالطبيعة الواحدة للمسيح) البيزنطيين.

38 – صرح المسيح في القدس

في 23 نوفمبر بدأنا نجول حتى وصلنا إلى كنيسة «الثري» il Ricco وهو الذي ذكره الإنجيل بأنه كان يلبس الأرجوان وفيه جاء الفقير اليعازر وبعد موته شاهده الثري يعانق إبراهيم.. وبعده درب الآلام، حيث علّق الصليب في عنق شمعون القيريني Simone Cireneo . وهناك المكان الذي رأيت فيه العذراء ولدها والصليب في عنقه، وهناك المكان الذي بنت فيه القديسة هيلانة كنيسة وسمّتها كنيسة القديسة مريم Santa Maria della Spasimo أو كنيسة الآلام، لما شعرت به العذراء في هذا المكان.

ويوجد في هذا المكان مسجد للمسلمين أيضاً، ولا يستطيع المسيحيون دخوله. وبعده المنزل الذي ذهبت فيه العذراء تتلقى علومها في المدرسة، وقربها منزل بيلاطس Pilato الذي أعطى قراره بموت المسيح، وكذلك لا يستطيع المسيحيون دخوله. ثم هناك بيت هيرود الذي بعث بيلاطس إليه السيد المسيح. وهناك معبد سليمان، ولا يستطيع المسيحيون دخوله. ثم كنيسة القديسة حنّة أم مريم العذراء وفيها ولدتها، وهناك باب Aurea حيث دخل منه السيد المسيح في أحد الزيتون، وهو مقفل الآن ولا يستطيع المسيحيون دخوله. ولقد طلبت من المترجم أن يدخل قطعة نقود، وأعطيته دوقيتين لذلك عني وعن آندريا.

وتركنا القدس عبر باب المدينة، وهناك وادي يهوشافاط Giusafà حيث سيأتـي المسيح ليحكم هذا الكون. ونزولاً إلى الشاطئ قبل الوصول إلى الماء يوجد حجر كبير عليه ركع القديس إسطفان عندما رُجم، ومن هذا الحجر الذي ركع عليه ثم مات أخذتُ كمية كبيرة من الحصى الصغير.

ثم وصلنا إلى نبع ماء وُضع عليه جسر خشبي منه أخذ خشب الصليب. عبرنا الماء حتى وصلنا إلى كنيسة بنتها القديسة هيلانة، وهنا قبر السيدة العذراء، وبالقرب الحقل الذي أُخذ منه المسيح بسبب خيانة يهوذا، وهنا قطع القديس بطرس أذن الخائن.

وهناك المكان الذي ترك فيه المسيح أتباعه من الحواريين بعد أن أوصاهم بالامتناع عن شهوة الجسد فوجدهم نياماً وقال لهم: «ألا تستيطعون أن تسهروا أكثر من ذلك!». وهناك المغارة التي تعرّق فيها المسيح دماً بعد صلاته، وهناك المكان المؤدي إلى جبل الزيتون الذي أعطت فيه العذراء حزامها إلى القديس توما قبل أن تنتقل إلى السماء. وهناك المكان الذي التقت فيه بالمسيح وهو يبكي.

40 - جبل الزيتون

من جبل الزيتون إلى الجليل المكان الذي منح فيه الملاك العذراء نخلة معلناً موتها بعد 3 أيام. وعلى قمة الجبل في الجليل ظهر المسيح على الحواريين بعد قيامته. وهناك على جبل الزيتون كنيسة وهي جميلة وفيها حجر كبير عليه أثر قدم المسيح تركه قبل ذهابه إلى السماء يوم الصعود ascensione، وعلى جانب الكنيسة كنيسة أخرى اسمها السيّدة مريم Uziaca يقال بأن من عنده ذنب مميت لا يدخل إليها. وفي الساحة نفسها المكان الذي أعلن فيه الحواريون إيمانهم بالله Credo in Deum والمكان الذي طلبوا فيه من المسيح أن يعلّمهم الصلاة فعلمهم: «أبانا الذي في السموات».. Pater nostro .

وهناك المكان الذي شنق فيه يهوذا نفسه، وعلى التل الذاهب إلى بيت عَنيا Bettania حيث ركب المسيح ظهر الحمار في أحد الزيتون عندما ذهب إلى القدس واستقبلوه بسُعف النخيل ودخل من باب أوريا Aurea، وهو الآن مقفل. وهناك تيار ماء في وادي يهوشافاط Giusafà أخذه المسيح عائداً إلى القدس، وهناك بركة ماء حصلت فيها معجزة شفاء الأعمى، وهو مكان تُدبغ فيه الجلود الآن. وبالقرب منه المكان الذي نُشر فيه إشعيا Isaia من وسطه بالمنشار. وهناك مغارة أرضية وصل إليها الحواريون ليختبئوا خوفاً بعد أن مشى المسيح درب الآلام. وعلى جبل صهيون الحقل الذي حصل فيه يهوذا على 30 ديناراً لقاء وشايته بالمسيح، ثم ردّها قبل أن يشنق نفسه.

في هذا المكان يدفن الحجّاج الذين يموتون، وقرب قبرٍ المكان الذي أعلن فيه بطرس (پييترو) توبته بعدما أنكر المسيح، وهو مكان يدعى[1] Canti Galli. وعلى يدنا اليمنى باب مدينة القدس الذي يذهب نحو بيت لحم. وفي الداخل معبد سليمان حيث حصلت معجزة الكسيح الذي مكث 38 سنة عند مدخل دخول المياه التي جعلتها الملائكة تجري، وعندما لم يستطع النهوض ولم يساعده أحد للدخول قال له المسيح: احمل فراشك وامش إلى بيتك وتحرّر.

وهنا واحتراماً للقانون ذهبت العذراء مع طفلها لتصنع قرباناً للمعبد فوجدت Simeone يستقبلها. وهنا يرد في سِفر المزامير Psalm :

«Nune dimittis serum tuum, Domine; secundum verbum tuum in pace, Quia viderunt oculi mei salutare tuum. Quod porasti ante faciem omnium popularum. Lumen ad revelationem gentium; et gloriam plebis tuae, Israel».

وهناك المكان الذي رأت فيه العذراء الماء الذاهب إلى جبل الزيتون، فذهبت لتضحي في المعبد بحمامتين وهي امرأة فقيرة كما يقول الإنجيل المقدس، ثم تسلقت جبل صهيون ووجدت المكان الذي حضرّ فيه المسيح العشاء ليأكل منه تلاميذه في الخميس المقدّس. وقرب هذا المكان الذي ضُحّي الكبش به. وهناك المكان الذي غسل فيه المسيح أقدام تلاميذه، فقال له القديس بطرس: Non lavabis me in actunum، فأجابه: إن لم أغسلها لن تأتـي معي.

وفي هذا المكان ظهر المسيح على الحواريين فبدؤوا يتكلمون لغاتٍ عديدة. وهنا في هذا المكان الذي يعلوه قوس ظهر عليهم المسيح عندما بُعث، ولم يكن بينهم القديس توما، وعندما أعلموه لم يصدّقهم قائلاً: لن أصدّق ما لم أضع يدي على الثقب الذي جعلوه في يد المسيح وأقدامه وأضلاعه. وبعد أن رجع المسيح وسطهم قال للقديس توما:

---

(1) الأصح: Gallicantus وهو المكان الذي صاح فيه الديك يوبخ القديس بطرس على إنكاره للمسيح، وهناك كنيسة في هذا الموضع الآن.

ضع يدك في أماكن الثقوب إذا لم تصدّق، ولكن كان حريٌّ بإيمانك أن يجعلك تصدّق.. فصدّق توما المسيح. ويقع هذا القوس جانب كنيسة جبل صهيون. وفي الخارج منزل متواضع سكنت فيه العذراء بعد درب الآلام. وعلى طرفها المكان الذي كان يصلّي فيه القديس يوحنا قداساً للعذراء. وهنا المكان الذي انتقلت فيه العذراء إلى السماء، وكانت مخدتها من حجر أحضره لها الملائكة من جبل سيناء.

وعلى مقربة من ذلك المكان الذي اختار فيه الحواريون خلفاً للخائن يهوذا حتى يكتمل عددهم، فوقع اختيارهم بفضل الله على متى. وهنا المكان الذي وعظ فيه المسيح العذراء والحواريين في الصباح الذي سبق انتقاله إلى السماء قبل ذهابه إلى جبل الزيتون. وفيه الحجر الذي وقف عليه واعظاً، وآخر جلست عليه العذراء، وعلى مقربة الكنيسة التي تاب فيها داوود بعد الذنوب التي اقترفها في القبر. وهنا مكان قبر سليمان ووالده، وفي مكان أعلى من جبل صهيون كنيسة تابعة للقديس فرنسيس فيها حارس و8 رهبان أو أكثر. وفي كنيسة القبر المقدس راهب منهم، وفي الكنيسة التي ولد فيها المسيح في بيت لحم ستة منهم. وهم يتركون الأبواب مغلقة عندما يصلّون خوفاً من المسلمين.

وفي أعلى الجبل ساحة واسعة فيها دُفن عدد كبير من القديسين، وهناك دُفن القديس اسطفان الشهيد الأول. وعلى الجهة الأخرى للساحة منزل قيافا Caifas حيث أحضر المسيح ليلة القبض عليه، وفيه ضرب وعذّب. وهنا الحجر الذي استخدمه اليهود لسدّ مدخل سكن المسيح، وعلى الجهة اليسرى المكان الذي أراد فيه اليهود خطف جسد العذراء عندما كان الحواريون يريدون دفنها في وادي يهوشافاط Giusafà، وبفضل الله قيّد الله أيديهم فأعلنوا اعتناقهم للمسيحية، فرجعت أيديهم كما كانت. وهناك كنيسة القديس يعقوب، وفيها قُطع رأسه. وعند نزول الجبل المكان الذي بدا فيه المسيح على ثلاثة من النساء يُدعين مريم، وهنا في هذا المكان قصر داوود، ومكانه قلعة محصّنة يحرسها أمير القدس بأمر من سلطان بابليون.

وعندما وصل المسيح إلى جبل الجلجلة Calvario كان الجبل خارج سور القدس، أما في الجهة المقابلة لوادي يهوشافاط Giusafà فلا يوجد سور ولكن خندق، ويمكن لأي جيش أن يخترق هذا المكان. ولقد أصلح الإمبراطور الرومانـي تيطوس وڤيسپازيانو الأرض وزرعاها.

القبر المقدس

في 24 نوفمبر 1384 دخلنا كنيسة القبر المقدس في الساعة التاسعة، وكانت ليلة عيد القديسة كاترينا، ومكثنا حتى اليوم التالي إلى وقت الغروب. يقابل الكنيسة ساحة في وسطها حجر صُلب عليه المسيح، والصليب معلق في رقبته في يوم الآلام، وهو الطريق الذي سلكه شمعون القيريني Simone Cireneo. وفي تلك الساحة 4 كنائس: الأولى للعذراء ويوحنا المعمدان، وهنا قال المسيح لأمه: هذا هو ولدك يا امرأة، ثم قال للقديس يوحنا: هذه هي الأم.. ويوجد الآن بين جبل الجلجلة Calvario والكنيسة جدار.

الكنيسة الثانية هي للقديس ميخائيل الملاك Michele Angiolo، والثالثة للقديس يوحنا المعمدان، والرابعة للقديسة مريم المجدليّة (ماريا مادلين). ولدخول كنيسة القبر المقدس 3 مفاتيح: واحد يملكه ترجمان السلطان، والثانـي أمير القدس، والثالث للكامرلانغ الإكليروسي. وهم ينفقون المال المأخوذ من الحجّاج عند إقامة شعائرهم، ويدفع كل حاج 6 دوقية تخوّله لقضاء يوم بكامله أي 24 ساعة، ويسمحون لك بتمديد الساعات إن شئت دون أن تبالغ. وإذا أراد أحدهم الدخول أكثر من مرة يدفع 4 دراهم أو 4 ڤينيسيانـي (بندقي) من الفضة، وهي تعادل واحداً ونصف من النقود الفلورنسية.

أما إذا دخل رجل مسلّح فيطلب الترجمان بأمر من السلطان الجميع أن يخرج ويبتعد. وفي الصرح المقدّس حجر أسود طوله 3 أذرع فلورنسية وُضع عليه المسيح ودُهن عندما رفع عن الصليب.

وفي الكنيسة جزء من العمود الذي رُبط عليه المسيح في ليلة الخميس المقدّس، وعمود وُضع عليه تاجه الشوكي، وهناك السجن الذي سيق إليه في ليلة الخميس المقدس. وفي الكنيسة حبل رُبط به المسيح مع اثنين من اللصوص. وهناك مكان يرتفع 12 ذراعاً عن الأرض عليه الحجر الذي ثقب فيه مكان الصلبان الثلاثة وعليه مذبحان. وفي أسفل الجبل وطوله 12 ذراعاً القبر الذي وُضع فيه المسيح بعد رفعه عن الصليب الخشبي. وتحت الجبل كنيسة كأنها مستودع تحت الأرض فيها وُجد رأس آدم أبونا الأول واسمها (الجمجمة) Golgota وعندما تدخل تجد على يدك اليمنى قبراً دُفن فيه غودفروا دى بويّون[1] Gottifredi di Buglione (غوتيفريدي دي بوليونِه) وعلى اليسار قبر آخر مشابه له دُفن فيه أخوه، ولقد ماتا عند استيلائهما على القدس والأرض المقدسة التي ما وراء البحار وكانا على رأس الحملة الصليبية.

تقع الكنيسة تحت لواء المسيحيين الأرمن، وفيها مكان وضع فيه لباس المسيح. وهناك كنيسة ظهر فيها المسيح على القديسة مريم المجدليّة (ماريا مادلين) على هيئة مزارع. وهناك كنيسة ظهر فيها المسيح على العذراء، وهي تابعة لرهبان القديس فرنسيس من جبل صهيون، ولقد التقيتُ راهباً من Babbiena. وهناك مكان تنزل أدراجه الـ 20 يوجد فيه صليب المسيح، وكذلك صليبا اللصين، وبعدما صلبوا دفن اليهود صلبانهم في الأرض لكي لا يجدها أحد. وفي هذا الصحن دائرة يقال بأن المسيح أشار بإصبعه عليها قائلاً: «هذا هو مركز الكون». وينتمي هذا الصحن إلى المسيحيين الفرنج والإغريق والأرمن ومسيحيي الحزام واليعاقبة، وعندما يأتي الحجّاج يستقبلهم هؤلاء الأساقفة والشموع بأيديهم لزيارة الأماكن. وفي كل مكان كنا نتناول قربان السيد المسيح. بعد ذلك خرجنا من الكنيسة واسترحنا يوماً كاملاً.

---

(1) غودفروا دى بويّون Godefroi de Bouillon أحد قوّاد الحملة الصليبية الأولى، التي احتلّت القدس في 15 يوليو عام 1099 م، وأخوه بودوان دى بولونْـيْ Baudouin de Boulogne، أضحى لاحقاً المؤسس الحقيقي لمملكة القدس اللاتينية.

في 26 نوفمبر 1384 في منتصف الليل خرجنا من القدس متجهين نحو نهر الأردن حيث عمّد يوحنا المعمدان المسيح. وسلكنا طريق بيت فاجي Bafagie وبيت عَنيا Bettania. وعلى نهر الأردن وجدنا كنيسة القديس يوحنا المعمدان، وهي جميلة ومتينة ولكنها بحاجة لأن تحمى بالأسوار، ذلك أنها تقع بين النهر وأرض أريحا Jerico وهناك أعتى لصوص تلك المنطقة. وبتنا الليل بين أريحا وبيت عَنيا، وكان علينا أن نحرس المكان كل الليل. ولقد بنت تلك الكنيسة القديسة هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين وهي تابعة الآن للرهبان الإغريق. وقد رأينا يد القديس يوحنا Crimaco دون الإصبع الكبير، ومكثنا في نهر الأردن يوماً كاملاً سبحنا فيه ومن لم يكن يتقن السباحة بقي ينتظرنا وكنا ننشد ترنيمة: Te Deum Laudanus . ويجري النهر 4 أميال ليصل إلى البحر المشؤوم الذي لعنه الله ودمّر قوم سدوم وعمورة. يسير النهر فترة طويلة قبل أن يصل إلى البحر الذي يبدو وكأنه مستنقع لا تعيش فيه الأسماك ولا أي شيء حي وكل طائر يطير يسقط ميتاً، والبلد حوله جاف، وعلى ضفته المكان الذي تحوّلت فيه زوجة لوط إلى تمثال. رجعنا إلى أريحا، وهي تبعد عن مكان التعميد 6 أميال، وهي أرض جميلة فيها قصب سكر وتمر وفاكهة، ولكن كما قلت مسبقاً فسكانها غير جيدين، وهي أول أرض أخذها بنو إسرائيل من أرض الميعاد وقاتلوا أهلها.

في المساء ذهبنا إلى النزل على البحر الذي مشى عليه المسيح دون أن تبتّل قدماه. وهناك أراض فسيحة غير مسوّرة.

المناطق المقدسة في دمشق

دخلنا في اليوم التالي الطريق التي تصل القدس بدمشق، وفيها أراض خالية ما عدا بعض مناطق العبادة ولكنها غير مميزة أو واضحة للعيان. وفي مسيرتنا نزلنا في خان أعطينا صاحبه درهماً للشخص. وتوجهنا في اليوم التالي إلى دمشق، التي وصلناها مساء التاسع من الشهر نفسه.

وفي دمشق هناك بعض الأشياء البارزة التي سأتكلم عنها، ولكن عند اقترابنا فوجئنا بالحجارة تنهال علينا من كل صوب، فهرب الترجمان وجاء رجال عجائز للتوسط بيننا وبين الناس.. في جدران دمشق نافذة ما زالت موجودة تدلى منها القديس بولس عند هربه ممن أراد قتله، وما زال المكان الذي عمّد فيه حنانيا القديس بولس. وهناك الشارع الذي يصل إلى صيدنايا وفيه غيّر القديس بولس دينه واعتنق المسيحية، وقبل ذلك كان قد أصيب بالعمى ووقع على الأرض وقال له المسيح: «لمَ تضطهدني؟»، ولم يرجع إليه بصره إلاّ عندما عمّده القديس حنانيا واعتنق الدين المسيحي.

وعلى جانب دمشق العلوي على بعد ميلين نحو الغرب المكان الذي قتل فيه قايين أخاه هابيل، وهما أول من ولد لرجل وامرأة من سيدنا آدم وحواء الذين خلقهم الله. وفي هذا المكان بنيت كنيسة أنشأتها القديسة هيلانة، وهنا المكان الذي سأل فيه الله قابيل عما فعله بأخيه فأجابه أنه لم يكن يحرس أخاه. وفي المكان الذي اعتنق فيه القديس بولس المسيحية حقل يُدفن فيه مسيحيو الحزام، وهناك حجر يقال بأنه قُطع عليه رأس القديس جرجس [البوّاب]، وهو مكان مبارك[1].

كنيسة القديسة مريم العذراء في صيدنايا

على بعد 14 ميلاً من دمشق توجد صيدنايا وفيها مسيحيو الحزام، وفي هذا المكان لا يعيش المسلمون. يرأس المكان رهبان إغريق، ولاحظنا وجود العنب الكثير في هذا المكان، وهم يشربون النبيذ مثلنا. وفي أعلى الحامية كنيسة جميلة مغطاة بالقرميد كالطريقة التي نبني بها نحن وفيها دهليز قناطر وساحة. ويترأس الكنيسة راهبات مريميات من الرّوم، وراهبات الحزام المسيحيات. وعددهن في الداخل 23، وتوجد في الخارج راهبات ونساء تقيّات تخدمهن.

(1) تعرف هذه المحلّة اليوم بالدّويلعة، وجرجس كان بواباً أعان بولس على الهرب من الرّومان.

ومن المعجزات الهامة التي حصلت في هذا المكان أنه كان هناك لوحة للسيدة المباركة مريم وكانت لراهب يضعها في غرفته، وكان من عادة الراهب الذهاب كل عام لقضاء 40 يوماً في القدس ويأخذ معه اللوحة. وفي المرة الأولى بعد ذهابه إلى ضريح السيد المسيح وقضائه صلاته أراد إخراج اللوحة ليصلّي راكعاً أمامها فلم يجدها فحزن حزناً شديداً لأنه اعتقد بأن أحداً سرقها. ولكن عند رجوعه إلى صيدنايا وجدها في مكانها في الكنيسة فتعجّب. وفي الحج الثاني فعل الشيء نفسه واختفت اللوحة ليجدها عند رجوعه في مكانها. أما في الحج الثالث فحوّلت اللوحة وهي من الخشب إلى لحم يتصبّب عرقاً وهي تتعرّق دائماً ويقال بأنه في هذا المكان يرمي الصيادون قطرات من عرقها في الماء فيحصلون على رزق وخير، وهو يفيد في شفاء بعض الجروح، ولقد أعطت النساء التقيات الحجّاج من هذا السائل في قوارير، ولقد أخذنا نحن أيضاً، وأردتُ أن أجرّبه فأدخلتُ أصبع يدي اليمنى في السائل وفركت به نتوءاً كان قد ظهر تحت عيني اليمنى، وفي اليوم التالي ذهب نهائياً. وعندما رجعت إلى فلورنسا وجدت ابني وقد أصيبت رجله بجرح لم يندمل وبه رائحة نتنة، فدهنته بهذا السائل وأوصيت زوجتي أن لا تضع عقاراً آخر، فشفيت رجله تماماً.

كيف يطبق القانون في دمشق

تركنا كنيسة صيدنايا، وفي طريقنا وجدنا عدداً من المسلمين والفقراء وقد جرّوا خلف جمل رجلاً قد مات، وكان هناك آخر ما زال حياً وقد جُرّ أيضاً خلف جمل. وكان هذا ما أمر به سلطان دمشق، وكان بإمكان أي شخص مشاهدة تنفيذ الحكم الصادر دون إعاقة. وكان يحصل هذا الأمر في ساحة كبيرة جانب القلعة[1] Cassero.

(1) أي ساحة تحت القلعة، التي كانت في عصر المماليك آنذاك الساحة العامة الرئيسية بدمشق. وخير من وصفها في القرن الخامس عشر الميلادي الرحّالة المصري أبو البقاء البدري، انظر كتابي: «دمشق في مرآة رحلات القرون الوسطى».

مدينة دمشق مسوّرة ولكن ليس فيها قبور إلاّ من جهة واحدة، وهي مدينة قديمة وكبيرة، ولها أرباض يفوق عدد سكانها مافي المدينة. وفي كثير من الأحيان تقع تلك الأرباض لصيق جدار المدينة. وعندما كنا هناك كانت القافلة تستعدّ للرحيل إلى مكّة طلباً للغفران وللتجارة التي يحضرونها من الهند.

مكة ودمشق

وفي مكة جسد محمد (ص) يذهبون لزيارته كما نفعل نحن عند قبر المسيح. ويقولون بأن الكنيسة أي جدرانها وسقفها من المغنطيس لأن المغنطيس يجذب الحديد، ولقد وضعوا في الوسط أي في الهواء تابوتاً من الحديد يبقى معلقاً في الهواء في منتصف تلك الكنيسة. وفي ذلك التابوت جسد النبي[1].

ومن دمشق إلى مكة 40 يوماً، والطريق في معظمه صحراء، ولقد خرج من دمشق عندما كنا هناك ما يقارب 20.000 شخص، ومع ذلك بدا الأمر وكأنه لم يخرج أحد فعدد الناس كثير. وكذلك الطرق، وهي أكثر من طرق فلورنسا وتزدحم الأمكنة كما لو أنه هناك مناسبة لسباق الپاليو[2] في عيد القديس يوحنا في فلورنسا. وكما هي مليئة بالسكان فهي مليئة بالدّكاكين أيضاً، ولكل حرفةٍ مكانها كما هو معمل الصّوف المتخصص في فلورنسا بهذا الفن. ولا يجوز للتاجر تغيير مهنته، فإذا كان الوالد بائع قماش أو صائغ أو أي شيء آخر وجب على بنيه وكل ذرّيته امتهان صنعته، ولهذا السبب ترى الأشياء بغاية الاتقان والجمال. وفي تلك الأرض أخشاب كثيرة، وهناك معلّمون صناع يمتهنون صناعة الخشب ويجيدون ابتكاره ولا يعملون أي شيء آخر.

---

(1) أسطورة عجيبة غريبة تداولها الكثيرون من حجاج أوروبا في القرون الوسطى، ربما ابتدعها بعضهم فصدقه الآخرون.

(2) ما زال الپاليو يقام إلى اليوم ولكن في مدينة سيينا Siena في توسكانا، فتجري في ساحة المدينة الخيول التابعة لكل حي من أحيائها. ومن يفوز يحتفل حيّه وينال الجائزة. ويسمّى هذا السباق: Il Palio di Siena أو مجرد Il Palio اختصاراً.

وهناك مربّيات السكر من التفاح والزنجبيل[1] giengiovo وهناك محلات لا تبيع إلاّ الزهور[2] في كل فترات السنة، زهور البنفسج والورد، وهي تفوق رائحة زهورنا، وهنا يصنع ماء الزهر الأجود في العالم. وعندهم طرق لحفظ الثلج في كل أوقات السنة ويضعونه في مشروباتهم. وفي الشام ماء سائغ وبكمية كبيرة، وهو يجري في مناطق عديدة، ويأتـي أكثره من البحار الشمالية حيث قتل قابيل أخاه هابيل. وعندهم لحم لذيذ الطعم وطيور الحجل.

مكثنا في تلك الأرض ما يقارب من الشهر، استقبلنا خلالها عدد من الڤينيسيين والقطلان وأحسنوا ضيافتنا هم وقناصلهم. ولكن هناك مرض صديقنا الثالث وهو Andrea di messer Rinuccini، ولقد بذلنا ما في وسعنا لمساعدته ولكن الله استدعاه إليه، ولقد دفناه في دمشق، ولذلك إذا أراد إخوته احضاره من هنا فما عليهم إلا دفع عدد من الدنانير، وهذا ما وعد به Andrea di Sinibaldo da Prato وكان في دمشق من طرف الپورتيناري Portinari، وهذا أمر يشرّفنا كثيراً.

جبل لبنان

دفنا آندريا وتركنا دمشق باتجاه لبنان، حيث توقف نوح لقطع الخشب من أجل مركبه لاستخدامه أثناء الطوفان. ويخرج من هذا الجبل نبعان يشكلان نهرين كلاهما يصيب في سهل نوح، بين دمشق وجبل يدعى «سفينة بيروت» arca di Baruti، وفي هذا المكان صنع نوح سفينة. وهناك على الساحل البحري فوق الطريق المؤدي إلى بيروت مسجد كان كنيسة في السابق، على جدارها مكان عال ارتفاعه 30 ذراعاً يقال بأن نوح مدفون فيه. ومنهم من يقول بأن القديسة هيلانة هي التي صنعت مذبح الكنيسة.

---

(1) ما زالت دمشق إلى اليوم تشتهر بمربّيات الفاكهة.

(2) انظر ما ذكره شيخ الرّبوة آنذاك، نشرنا نصه في: «دمشق في مرآة رحلات القرون الوسطى».

والنهران اللذان يجريان من الجبل إلى السهل اسمهما: «جور» والآخر «دان» ويجتمعان في الطريق المؤدية إلى دمشق ليكونا نهراً واحداً، ولذلك يجتمع الاسمان في: «جوردان». وهناك اشترينا سمكاً لذيذاً وطهيناه. ينزل هذا النهر في جهة الجليل وهنا يصبح بحر الجليل، وينطلق الماء ليسقي أرض الميعاد، ويسمى أيضاً: نهر الأردن، وفيه المكان الذي عُمّد به المسيح، ثم المكان المشؤوم الذي لُعن فيه شعب سدوم وعمورة. وهنا ينتهي سيله.

والبلد الذي ندعوه نحن الجليل يسمّيه المسلمون طبريّة، وعلى ضفتيه مساكن جميلة وقصور وفيها مزارع. أما في الجهة العليا من جبل لبنان في الشمال فهناك طرابلس والأراضي التي تقع على البحر فيها مرفأ جيد. تركنا سهل نوح متجهين إلى بيروت وسلكنا جبلاً وعراً يشبه الألب عندنا تكسوه الثلوج كل أيام السنة[1] وفيه أشجار تشبه السّنديان. ثم هبطنا نحو بيروت عابرين غابة كبيرة من شجر الصنوبر وكأنك في مدينة راڤينّا[2] Ravenna من جهة Romagna .

* * *

وصلنا بيروت وقت صيامنا، وبيروت جميلة وفيها قلعة مسوّرة أنشأها السلطان للمراقبة، ووضع فيها جنداً كثيرين، والأمواج تضرب جدار القلعة. وفيها كنيسة تنتمي إلى القديس فرنسيس، وهي جميلة ومباركة وتسمى كنيسة المخلّص، وفيها حدثت معجزة: فعندما كان المكان مليئاً باليهود، صنعوا صليباً فخرج منه الدّم الكثير حتى وصل إلى الطريق، فبدأت الناس تركض وأصاب اليهود الهلع، وبسبب تلك المعجزة تعمّد الكثير منهم وأصبحوا مسيحيين. وما زال فيها العمود الذي عُذبت عليه القديسة بربارة.

---

(1) المقصود سلسلة جبال لبنان الشرقية، وهي بالإضافة إلى جبل صنّين تتكلّل بالثلوج خريفاً وشتاءً. أمّا الأشجار التي تشبه السّنديان فهي من أنواع البلوط، ولعله يقصد الأشجار التي من جنس السّرو، كالشربين والأرز المنتشرين في جبل لبنان.

(2) مدينة ومقاطعة في منطقة إيميليا رومانيا Emilia Romagna ترتبط بالبحر الأدرياتيكي بقنال. كانت عاصمة الإمبراطورية الرومانية الغربية بين 402-476.

وعلى بعد ميل من البحر كنيسة القديس جرجس حيث قتل القديس التنين الذي كان يلتهم كل يوم شخصاً فحرّر البلد منه. وفي ذلك الوقت أتى ميسّر أوليڤييري دي تشينكي Messer Ulivieri di Cinchy واصلاً من مملكة فرنسا ذاهباً إلى مملكة پوليا Puglia مع Duca d'Angiò وصحب معه 30 فارساً محمّلين ذهباً، ولقد توفي أحد أولاده هناك ومات آخرون هنا. واجتمع جميع الحجّاج ينتظرون المركب الذي سيقلّهم إلى ديارهم وعائلاتهم.

الرجوع إلى الوطن

جاء نبيلان ڤينيسيان هما ميسّر نيكوليتّو ريتشو Messer Nicoletto Riccio وميسّر پييروتشو ماليپييري Messer Pieruccio Malipieri، وجلبا معهما مركباً ذا شراعين، ونظراً لطريقهما الطويل لم يستطيعا إصلاحه، لذلك كان الماء يدخل عبر خشبه، فكنا نضطر إلى إفراغ ما يقارب الـ 100 برميل. خلال الليل أبحرنا في شهر أيار وكانت الريح مؤاتية حتى خليج Satalia، وهنا واجهتنا عاصفة هوجاء ورياح شديدة، حتى أنّ صاري الشراع قد انكسر وتوجهت السفينة نحو أرض البربر.

ولقد غمرتنا المياه حتى فقدنا الأمل، وأصبحنا على بعد نصف ميل من الأرض، وبمعونة الله تحسّن الطقس لنجد أنفسنا على بعد 800 ميل، فقفلنا راجعين شاكرين الربّ، لأننا لو وصلنا إلى أرض البربر لكانوا باعونا عبيداً. ومكثنا 14 يوماً لا نرى إلا سماء وماء وفقدنا الأمل بالحياة، ثم تركنا جزيرة قبرص على يميننا بعد أن تزوّدنا بالمؤن والزاد وكنا بحاجة ماسة إليها.

وبعد أن أكلنا كمية كبيرة من التفاح البرتقالي melaranci الذي كان الربان قد أخذه من بيروت إلى ڤينيسيا، وبعد أن تركنا جزيرة كانديا إلى يميننا، واتتنا الرياح فوصلنا إلى ڤينيسيا سالمين. وهناك استُقبلنا بحفاوة وأمضينا الصباح مع الدودجِه Doge (الحاكم الأول للبندقيّة).

وتعشّينا مع ميسّر پييروتشو ماليپييري Messer Pieruccio Malipieri الذي استقبل أكثر من 50 رجلاً نبيلاً من ڤينيسيا، ولقد استدان منه ميسّر بلترامو Messer Beltramo مبلغ 1000 دوقية ليعود إلى بيته، فلقد نضب ماله ووعد بإرجاعه جاعلاً جورجو Giorgio ضامناً على 200 وأنا أيضاً، ولكنه وفى بوعده بعد ذلك، وهو فارس نبيل.

مكثنا بضعة أيام في ڤينيسيا، ثم رجعنا فلورنسا عن طريق بولونيا[1]، وبعد 11 شهراً ونصف دخلنا بيوتنا لنطيّب خاطر عائلاتنا.

هنا تنتهي رحلة ليوناردو فريسكوبالدي

* * *

(1) مدينة بولونيا Bologna في شمال إيطاليا أهم مدن مقاطعة إيميليا رومانيا Emilia Romagna، بها أقدم جامعة في العالم: "Alma Mater Studiorum" أنشئت في عام 1088 م. ولا علاقة لها طبعاً بدولة پولونيا Polonia (أو پولندا بالإنجليزية) .

رحلة إلى جبل سيناء
سيمونِه سيغولي

بسم الله، آمين

هنا ومن هذا الموضع سنذكر في رحلتنا لزيارة صرح المسيح المقدس نبلاء الأرض الواقعة ما وراء البحار وسنتكلم عن أزيائهم وعاداتهم، وعن مدة الرحلة وعدد الأيام التي سنستغرقها متنقلين من مكان لآخر وماذا سنكتشف وسنتكلم عما يقال ويحكى وعن كل الأحوال والأعراف. من هنا أريد أن أسجل أنا سيمونِه سيغولي سنة 1384 تاريخ ذهابي لزيارة صرح القديسة كاترينا في جبل سيناء وصرح السيد المسيح والأماكن المقدسة الأخرى مع رفاقي في الرحلة وهم:

Lionardo di Niccolò Frescobaldi
Andrea di Messer Francesco Rinuccini
Giorgio di Guccio di Dino Gucci
Bartolomeo di Castel Focognano
Antonio di Pagolo Mei lanaiuolo
Santi del Ricco Vinattiere

مع ستة من أفراد عائلاتنا. تركنا فلورنسا في 13 من أغسطس من السنة التي ذكرناها سابقاً متجهين نحو ڤينيسيا، حيث وصلنا في 18 من الشهر ذاته، وفي 4 سبتمبر في يوم الأحد ليلاً وبمعونة الله بدأنا نعدّ الأشرعة لرحلتنا.

أبحرنا مدة أربعة أيام، وفي ليلة ذكرى السيدة العذراء من شهر سبتمبر كانت الريح في صالحنا، فوصلنا إلى مضيق يقال له كارنارو، ودعوني أذكر هذا الاسم وأشدّد عليه لأنه كان مدعاة حظ ورعب، ويقع على بعد مئة وعشرين ميلاً. يقول ربّاننا بأنه كان يدعى نيكولو پولو وفيه تحطمت مراكب كثيرة كبيرة وصغيرة. هنا وبحفظ الله ورعايته مررنا بسلام نمخر عباب بحرٍ عالي الأمواج لمدة تناهز اليوم، إلى أن وصلنا جزيرة موجودة في عرض البحر وقد شطرت قسمين يمتدّ الماء بينهما، وتقول القصة إنه عندما أحضر أهل ڤينيسيا جثمان القديس ماركو من الإسكندرية وصلوا إلى تلك الجزيرة فانقسمت على نفسها لتدع الجسد المبارك يمرّ، وهكذا حُمل جثمان القديس إلى موطنه.

أما نحن، فبعد زيارتنا للجزيرتين عاودنا رحلتنا، ولقد واتتنا ريح مكنتنا من الوصول خلال فترة لا تتعدى 3 أيام وليالٍ. في النهاية فضّلنا العودة مسافة مئة وخمسين ميلاً حيث دخلنا مرفأ جزيرة جيانتا في اليونان، وهو مكان غير مأهول بالسكان ويسمى ليزوبونتو حيث مكثنا ثلاثة أيام، ولقد قدم رجال من الجبال المجاورة يعرضون علينا طعاماً للبيع، فاشترينا دجاجاً سميناً ثمنه تسعة نقود من عملتنا للزوج، وحصلنا على سلعٍ كثيرة أيضاً من كل صنف ونوع.

من هذا المرفأ في ليزوبونتو وحتى ڤينيسيا كانت المسافة 900 ميل. وبعد إقامة استغرقت 3 أيام تركنا المكان، وبمعونة الله دخلنا وعبرنا الجزيرتين لنصل إلى قلعة تبعد 100 ميل وتسمى مودون، وهي قلعة رائعة الجمال تقع على الطريق البحرية فتؤمّها المراكب. ويقال بأنّ عدداً من أهل جنوة تعرّضوا لها بالسرقة، فأصابهم السخط والعار، ومنذ ذلك الوقت لا يدخلها أكثر من 3 جنويين مرّة واحدة. تقع القلعة على جبل وبالقرب منها كنيسة تحتوي رفات القديس ليو.

مكثنا في ذلك المكان يوماً ونصف، وشاءت الأقدار وكما يريد الله أن ندفن واحداً من مرافقينا توفي، وهو بارتولوميو دي كاستل فوكونيانو Bartolomeo di Castel Focognano.

يبعد هذا المكان عن ڤينيسيا 1000 ميل، وما لبثنا أن تركناه، وعلى بعد 12 ميلاً قلعة أخرى اسمها كورون، وهي من أجمل القلاع، وفي هذا المكان تنبت أفضل البذور التي تصبغ اللون الأحمر القرمزي في العالم.

تركنا المكان لنصل جزيرة كانديا، ثم دخلنا بحر ساتاليا[1] الذي يقع بين جزيرة كانديا وجزيرة قبرص، ويقول البحّارة ورجال الدين إنّ هذا البحر لا قعر له. تركنا جزيرة قبرص، وبعون الله وصلنا مرفأ الإسكندرية يوم الثلاثاء مساءً في يوم 27 سبتمبر. ويوم الأربعاء صباحاً وصلنا إلى الأرض حيث توجهنا إلى دار المكوس لإنزال الحمولة، وهنا لقينا موظفون من المسلمين أحاطوا بنا بحثاً عن عملات الذهب والفضة، وهنا طبقنا المثل الذي يقول: «غضّ النظر عن أفضل ما تعرف، وأنا أفتش لك عن أفضل ما أعرف».. وبتلك الطريقة تنقذ نفسك وغيرك دون أن يقع اللوم على أحد. ومن الإسكندرية إلى مودون كانت المسافة 900 ميل، وهناك من يحتاج 1000 ميل للوصول.

هنا أريد أن أتحدث عن سكان الإسكندرية وزيّهم وأوضاعهم وأين تقع مدينتهم. في البداية سأتكلم عن كبرها فأقول بأن طولها 4 أميال وطولها يفوق عرضها، وهي أرض واسعة وفيها طرقات جميلة وفسيحة مليئة بالبضائع التي لا تخطر لك على بال جُلبت من كل حدب وصوب، فيها لحم وفاكهة من أطيب الأنواع على الأرض ورمّان كبير شديد الاحمرار من الداخل وحلو كالسكر. هناك إجاص وتفاح وخوخ وفاكهة أخرى من بطيخ أحمر وأصفر، وكلام الإنسان يعجز عن التعبير عن مذاقها الطيب. وهناك نوع من الفاكهة قال العديد من الناس بأنها هي التي دفعت سيدنا آدم إلى الخطيئة، واسم الفاكهة Muse موزة[2] لونها كلون الخيار عندنا ولكنها أكثر طولاً وضيقاً وهي طرية، أما مذاقها فغريب، حتى أنهم يقولون بأن من يتذوقها يحبّها إلى درجة تجعله يترك الفاكهة الأخرى.

---

(1) بحر في الأناضول أو خليج آسيا الصغرى.

(2) اسمها في أوروپا آنذاك موزة الجنة وتدعى أيضاً تين آدم.

لهذه الفاكهة معجزة أخرى، وهي أنه عند قطعها من أي جهة أردت طولاً أم عرضاً أم من الجانب تظهر وسطها إشارة الصليب[1]، ولقد أخضعنا الأمر للبرهان. وهناك من يسمي تلك الفاكهة تفاح الجنة وهو الاسم المناسب لها. أما شجرة تلك الفاكهة وساقها فلونها أحمر كالدم، وهي منتفخة وهشة بنفس الوقت ويتفرع منها أربعة أذرع، وتظهر الفاكهة في الساق ثم تجف ومن الساق الأخرى تنتج فاكهة أخرى ثم تجف، وهكذا من سنة لأخرى.

يصنع الخبز في هذا المكان وهو جميل وطعمه لذيذ كما أن سوقهم أفضل من سوقنا، وهناك لحم عجل سمين أبيض وطيب ثمنه 20 من عملتنا للرطل ولحم الضأن المخصي وثمنه 16 من عملتنا للرطل وذيلها مدوّر يزن 25 رطلاً تقريباً وهي سمان وبيض وفي داخلها دهن كدهن الخنازير عندنا. وهي أفضل اللحوم طعماً، وعندما تطلبها من صاحب الحانة يحضرها دون عظمها وإذا أردتها مع عظمها أحضرها لك، وهم يطهون بطريقة متقنة وبتذوّق. وهناك من يبيع لحم الحصان والحمار والجمل مطهواً أو نيئاً، وهي لحوم شديدة البياض.

أما سوق الدجاج فهو كبير جداً وأوسع من ذلك الموجود عندنا، وعند شرائك دجاجة من بائعها يقطع لك رأسها قبل بيعها، أما إذا خانك الحظ وشددت عنقها أو عنق أي طائر آخر وقعت في مأزق، فهذا سيكلفك 50 فيورينياً ذهبياً أو أكثر عن كل رأس حسب حظك ودرجة العفو التي تطالك. وإذا ذهبت إلى بائع الدجاج ورأيت عدداً من طيور الحجل الموضوعة في أقفاصها حية وانتقيت منها السمين وثمن الواحدة يصل إلى 6 من عملتنا، فلا يلبث البائع أن ينظفها لك وينتف ريشها. أما السمك فهناك من كل صنف وجنس وقياس وبكمية كبيرة جداً، وثمن الرطل منها 18 من عملتنا، وهناك خيارات كثيرة للانتقاء.

* * *

(1) هذه ليست معجزة، ففي النباتات تشكيلات هندسية عديدة جداً.

أما عدد سكان المدينة فيقول رحّالة من نفس ديننا إنه يصل إلى 50 ألف رجل، منهم المسلمون واليهود وذوو الأحزمة من المسيحيين والسّامريين، ويُعرفون جميعاً من لباسهم فالمسلمون يعتمرون القبعات البيضاء أما اليهود فالصفراء والمسيحيون الزرقاء والسّامريون الحمراء. وهناك أيضاً في الإسكندرية 3000 ممن لا يضعون شيئاً على رؤوسهم عدا قطعة من القماش تستر أجسادهم نظراً لشدة الحر في الصيف. أما في الشتاء فتلبس النساء المسلمات لباساً للأرجل يصل إلى القدمين ومنها يصنعون الجراب[1] أيضاً.

وعندما تخرج النساء من بيوتهن يضعن قبعات من الحرير الأبيض لا ترى من خلالها إلاّ عيونهن، ومن الممكن أن تمرّ الواحدة مئة مرة أمام زوجها دون أن يتعرّف عليها. لذلك فمن يستطيع منهم منعهن من الخروج لغيرته يفعل، وذلك لكي لا يسمح لهن بعرض أنفسهن[2] فعُرفهم يخصّص لهن الاقتصار على الأكل والانغماس في الملذات.

ولقد قال لي المترجم بأن عدداً كبيراً من النساء اللاتـي يلبسن البنطال هذا قد يصل سعره إلى 400 دوقية أو 500 إذا كان مرصعاً باللؤلؤ والأحجار الكريمة. كما أن القمصان الحريرية المطرزة بالذهب والفضة قد يصل سعر الواحدة منها إلى 200 دوقية من الذهب أو أكثر، وهي تلك القمصان القصيرة حتى الركبة والعريضة جداً، أما الأكمام فقصيرة حتى الكوع وأوسع بذراع من قياسنا نحن.

تقع الإسكندرية على البحر وفيها مرفأ كبير، وهناك جبلان من القمامة والقاذورات وفوق كل جبل برج محصّن يبلغ طوله ميلاً أو أكثر. وعندما استولى ملك قبرص على تلك الأرض لجأ سكانها إلى تلك البروج هرباً، ويبعد الجبل عن الآخر مسافة ميل تقريباً.

---

(1) سروال طويل، أو ما يُعرف في الإيطالية بالبنطلون (عُرّبت بالبنطال).

(2) أي في السوق أو الطرقات.

ولا يسمح لأي مسيحي أن يصعد إلى تلك الجبال إلاّ على حساب حياته. أما نحن فبعد أربعة أيام على وجودنا في الإسكندرية بعث الأمير بطلبنا لنلتقي بقنصل الحجّاج، فذهبنا إلى منزله وطلب منا أن نقدم أنفسنا للأمير. وعند بلوغنا المكان وطوله حوالي 25 ذراعاً كان علينا أن نخلع أحذيتنا ونمشي ثم نركع عند وصولنا إليه لنقبل الأرض، وهذا ما فعلناه 3 مرات.

جلس الأمير يترأسنا على سجادة وتربّع كما يفعل الحائك، وأحاط به عدد من المسلمين وقفوا جميعاً في حضرته، ثم سُئلنا عمّ جئنا نفعل فأخبرناهم أننا نبغي زيارة صرح السيد المسيح المقدس، ثم طلبنا منهم أن يسمحوا لنا بإدخال حمولتنا من الخمر فوافقوا، وأدهشنا هذا الأمر لأنه لا يتم عادة إلاّ إذا دفعت مقابله مبلغاً باهظاً.

عرفنا أن خليفتهم، أي البابا عندنا، وكذلك الكاردينال والأسقف يقتني عدداً من الزوجات. ويقال بأنه إذا لم يرغب أحدهم بزوجته ذهب إلى الأسقف الذي يرسل في طلبها ويأخذ الزوج زوجة أخرى، وهي كذلك تأخذ زوجاً آخر وتقوم بإرجاع مهرها. وإذا اقتضى الأمر أن يرجع الزوج في رأيه وأراد زوجته الأولى رجع إلى الأسقف الذي يرجع له زوجته، ويمكن لهذا الأمر أن يتكرر 3 مرات، فإذا زاد على ذلك بعث الأسقف برجل يتزوج الزوجة، وعند طلاقها يزوّجها من زوجها الأول. ولقد وُضع هذا القانون لإجبار الزوج على عدم الاستهانة بالأمر.

أما الزوجة فإذا اشتكت إلى الأسقف بأن زوجها لا يمارس حقه الزوجي أرسل الأسقف في طلبه وأعطاها حق الانفصال عنه إذا لم يغير من حاله. وإذا أصرت الزوجة على ترك زوجها كان عليها أن تتخلى عن نصف مهرها وإذا أرادت أن ترجع له بعد 3 مرات ينبغي أن تتزوج من رجل آخر ثم يطلقها فترجع إلى زوجها الأول، وإلاّ فلن يرجعا إلى بعضهما أبداً.

* * *

تركنا الإسكندرية في 5 أكتوبر مسافة ميل فمررنا ببساتين جميلة جداً تحفل بالفاكهة وبالتمر بشكل خاص، ولديهم سوق كبير ليس عندنا مثله، وهناك كمية كبيرة من الرّمان والليمون وتين الفرعون وأشجاره ضخمة وعالية كالسنديان، يثمر هذا التين 7 مرات في السنة أما أوراقه فصغيرة جداً، والتمر لا يأتي عبر الأوراق ولكن من قمة الساق أو الجذع وهو أبيض وطعمه لذيذ.

ثم وصلنا إلى قناة تدعى Caligine[1] وهي قريبة من الإسكندرية وتبعد ميلاً ونصف، ثم دخلنا تلك القناة نحو 30 ميلاً تاركين وراءنا عدداً من القصور فرأينا مدينة في منتهى الجمال واسمها Modiuolo وهي كبيرة يعادل حجمها ربع الإسكندرية. ثم وصلنا إلى حاجز في تلك القناة وهو سدّ يفتح ويغلق كما شئت ويعرّضون هذا النهر للفيضان عندما يريدون لأن المطر لا يهطل أبداً، لذلك أوجدوا هذا النظام الملائم لري الأراضي، ويستطيعون بذلك الحصول على محصولين في السنة.

تركنا السدّ متوجهين نحو القناة مسافة 15 ميلاً لنجد قصوراً جميلة، ثم دخلنا طرفاً من النيل يقال بأنه ينبع من جنة عدن وهذا النهر كبير وماؤه عذب. دخلنا النيل نهار الخميس في السادس من أكتوبر وعلى ضفتيه أراض جزيلة فيها كميات كبيرة من قصب السكّر والتمر وفاكهة أخرى تسرّ النظر والقلعة الأولى التي وجدناها تسمى Fua[2] وهي كبيرة وتطل على جزيرة روزيتو Rosetto (رشيد) التي يقال بأنها من أكبر وأجمل جزر العالم.

---

(1) يوجد هذا التعبير في نصوص پولو أيضاً، ويقول معلق النص بأنه يستعمل هذا الاسم حتى اليوم إشارة إلى القناة التي تصب في النيل وهي Calis . وثمّة ترع شقّت قديماً لتصل مياه النيل بالإسكندريّة، ولاحقاً أمر محمّد علي پاشا سنة 1807 م بتوسيع قناة قديمة لتكون ممراً مائياً للمراكب التجارية، وعام 1820 فُتح لها شرم على البحر وسُمّيت: «ترعة المحموديّة».

(2) المفترض أن تكون هذه القلعة موقع القلعة التي بناها لاحقاً في القرن الخامس عشر الميلادي السلطان الأشرف قايتباي عام 901 هـ، وتقع على الشاطئ الغربي للنيل. وهي ذات بناء مربّع وأبراج أربعة مستديرة، وتحيط بها خنادق ما زالت آثارها موجودة حتى الآن. وفي أرضيّة القلعة تمّ العثور على أهم نص أثري في العالم وهو حجر رشيد، على يد أحد ضباط الحملة الفرنسية، پيير فرانسوا بوشار Lieutenant Pierre-François Bouchard عام 1799 م.

وعلى تلك الجزيرة نزل ملك فرنسا[1] عندما كان في حملته، فتعرض المكان للطوفان، فوقع الملك مع حاشيته في أسر السلطان. مكثنا في تلك الجزيرة حتى المساء ثم أكلنا في المركب وجاء سكان القلعة لمشاهدتنا، ولقد حدّثنا في تلك الأمسية الترجمان عن عظمة الجزيرة والقلعة وبدا صادقاً واسمه[2] Saeto وعمره يناهز السبعين، وهو مسلم وطيّب وقال بأنه رافق عدداً من الحجّاج إلى كنيسة القديسة كاترينا وقبر المسيح المقدس 67 مرة.

مكثنا في القلعة ثم نمنا في المركب، وتركنا يوم السابع من أكتوبر مبحرين في النيل، وبدا عدد من القصور والقلاع وعدد من الحدائق المليئة بالتفاح بكمية كبيرة، وهناك أمكنة يكثر فيها نبات النّيلة Indaco وهناك عشب شكله كالخزف. ودفعنا للمرور من النيل حتى وصلنا القاهرة مبلغ 15 دوقية عن كل شخص، وأعطينا المال لأمير دمياط.

* * *

وصلنا القاهرة الإثنين مساءً يوم العاشر من أكتوبر وكان علينا أن ندفع مقدار 40 من عملتنا عن الشخص الواحد. سرنا في النيل مسافة 15 ميلاً محاذين الضفة حتى وصلنا إلى المنزل الذي يذهب منه الحجّاج إلى الصرح المقدس وكنيسة القديسة كاترينا، وهنا سنتحدث عن عظمة السلطان ومدينة القاهرة، وسأذكر لاحقاً زيّهم وعاداتهم التي لم أذكرها سابقاً.

ودفعنا مرة أخرى لقنصل الإسكندرية الذي يحجز الحجّاج دوقية واحدة للشخص لقاء غرفة لم يعطنا فيها سريراً.

---

(1) يعني بذلك الملك لويس التاسع قائد الحملة الصليبية السّابعة التي وجهت نحو مصر. في 6 يونيو 1249 م احتل الملك دمياط تمهيداً للمسير نحو القاهرة، وفي 20 نوفمبر باشر تحرّكه ونجح في اجتياز القناة، بيد أن أخاه روبير دارتوا Robert d'Artois الذي اندفع بقوّاته متهوّراً نحو المنصورة قُتل فيها، وأُبيدت الطليعة التي كانت تحت قيادته على بَكرة أبيها. وألفى الجيش الفرنسي نفسه، إثر تطويقه من قبل المماليك، مجبراً على الاستسلام في 6 أبريل 1250 م.

(2) يبدو لي الاسم بصيغته الإيطالية موافقاً لاسم: سيّد، وهو شائع بمصر.

وعند خروجنا من باب الإسكندرية دفعنا 6 قطع نقديّة من عملتنا عن كل شخص، ودفعنا أيضاً في القاهرة للمترجم، وهو مسيحي من ڤينيسيا اعتنق الإسلام وأراد أن يأخذ منا 4 دوقيات عن الشخص، ولقد كان من صالحنا أن ندفع أي مبلغ كان حتى نخرج من تلك الأرض.

تسمى كنائس المسلمين مساجد وفيها برج يعلنون منه وقت الصلاة، ويظهر المؤذن على شرفة البرج وينادي دائراً حوله 3 مرات بأنه حان وقت الصلاة. ملابس المسلمين كلها من الحرير الأبيض وهي طويلة وعريضة وتصل إلى الأقدام والأكمام طويلة وعريضة أيضاً كأنها قميص الراهب، ويضعون على رؤوسهم قلنسوة مدببة[1] ويلفون حولها 25 أو 30 ذراعاً من القماش الليتو أو الكتّان الشديد النعومة، ويلبسون أيضاً طاقيّة تُثنيت حافتها إلى الخلف.

والرجال أجمل منا جسداً ويرخون لحاهم الطويلة، وعندهم مسنون تبلغ أعمارهم 80 سنة، منظرهم جميل وقور. ويصوم المسلمون ويبدأ صيامهم في اليوم الأول القمري في شهر سبتمبر مدته 30 يوماً[2] لا يأكلون فيه ولا يشربون حتى المساء، وعندما تظهر النجوم في السماء يبدؤون بأكل اللحوم وكل شيء يباح ويستمرّون في الأكل كل الليل. ويدور راهب في كل حي في الليل ثلاث مرات مع دفّ يدق عليه منادياً الناس بأسمائهم قائلاً: قوموا ولا تناموا.

وبعد 30 يوماً عندما يشاهدون القمر الجديد[3] يحتلفون في الساحة الكبرى، وهنا تدق الطبول ويغني الناس ويرقصون ويأكلون وهناك من يرفع الأثقال ويقومون بألعاب رياضية، وهكذا لمدة 8 أيام وليالٍ. ويبيع الطهاة لحمهم خلال الليل بأكمله ومآكل لذيذة أخرى.

---

(1) يقصد بذلك الزّمط، وهي قلنسوة طويلة من اللبّاد، يُلف عليها قماش الشاش الرقيق. وتبدو بوضوح في لوحة أحد تلاميذ جوڤانـي بلّيني من عام 1511 م، التي تمثل استقبال وفد سفير البندقيّة نيكّولو ماليبيرو أو أنطونيو تريڤيزانو بدمشق، في أيام السّلطان قانصوه الغوري.

(2) أي شهر رمضان، إلا أنه لا ينطبق على شهر شمسي معيّن.

(3) يعلّق آنجيليني: وهذا هو البيرم، أي وقت العيد.

بعد قليل سنتحدث عن النساء المسلمات ماذا يفعلن عندما تُزفّ الواحدة منهن عروساً. ففي يوم الزفاف يدخل منزل العروس عدد من الناس منهم من يحمل أوعية الحليب ومنهم الشراب الموضوع في كؤوس مزينة من صنع دمشق وهي الأجمل في العالم، ومنهم من يحمل الكتّان ومنهم صناديق جميلة، كلّ ذلك حسب إمكانيات المرأة المالية. وتستعدّ هي للذهاب إلى بيت زوجها مساءً مصحوبة بعدد من النساء على ضوء الشموع. وعندما تصل المرأة إلى بيت زوجها تستعد النسوة في الداخل لمساعدتها في خلع ملابسها ويرسمن[1] جسدها وأرجلها وذراعيها برسوم لأرانب وغزلان وطيور وأشجار وأوراق.

وعند إتمام ذلك، تلبس سبعة أثواب الواحد فوق الآخر وكلها من الأقمشة الحريرية البيضاء وهي أجمل ما رأت عين. فكلها فاتحة وناعمة وبرّاقة من تلك التي يكلف الذراع منها 2 بيزنطي من الذهب. والبيزنطي يعادل فيوريني واحد أي ذهبية وربع. وعندما تذهب النساء في المساء مع العروس إلى بيت العريس يكون معها خنجر تعطيه للزوج، وتدخل المنزل وتجلس على سرير فيه 6 أو 8 فرشات موضوعة فوق بعضها ومغلفة بالحرير، وهي جميلة من الدّامسكو.

وتبدأ النساء بالرقص، فتبدأ الأولى ثم تليها الأخرى ولا يرقصن سوياً، وعندما ترقص الأولى تتقدّم نحو العروس وتعطيها بيزنطياً ذهبياً أو خاتماً تضعه العروس في رأسها بدبوس كي لا يقع على الأرض. وبعد الرقص تخلع العروس الهدية عن رأسها وتضعها في علبة موضوعة جانباً. وأما الرقص فكله حركات غريبة لم نشاهدها من قبل، إذ تبدأ الراقصة بالقفز إلى الأعلى، ثم تجلس القرفصاء وتقف رافعة ثوبها إلى الأعلى وترفع تارة هذا الطرف وتارة الآخر إلى الرأس، وبحركات هي من أجمل الحركات التي شاهدناها.. ومع رفعها للأثواب يبقى جسدها مغطى بالقماش الذي يستر الأرجل حتى القدمين.

---

(1) أي الوشم بالحنّاء.

وعندما تنتهي الأولى من الرقص تتبعها الأخرى لتفعل الشيء ذاته، وتظل العروس جالسة تجمع الهدايا التي قد تصل إلى بضع مئات بيزنطي ذهبي.

على بعد 10 أميال من القاهرة توجد صوامع القمح الفرعونية، وهنا يقال إنّ الفرعون قد رأى مناماً فيه 7 بقرات سمان و7 عجاف، و3 أهراء (مخازن قمح) مليئة بالقمح[1] و3 أهراء أخرى خاوية، فأراد معرفة معنى هذا المنام فأجابه يوسف: سيدي، يعني ذلك 7 سنوات من الخير، فإذا أردت أن تكون سيداً عظيماً املأ مخزناً كبيراً بالقمح، وعندما يبدأ القحط والمجاعة يمكنك إطعام الشعب، وهكذا تصبح سيداً كبيراً. ففرح فرعون كثيراً من هذا التفسير الذي أعطاه يوسف وطلب منه ملء الأهراء، فبدأ يوسف عمله جامعاً أكبر كميّة ممكنة من القمح من كل حدب وصوب حتى امتلأت الأهراء الثلاثة.

وتلك الأهراء ضخمة وتبعد الواحدة عن الأخرى بمقدار بسيط، وهي مسوّرة بحجارة ضخمة طويلة مسننة كالألماس قاعدتها عريضة وقمتها مدببة وعرضها أكثر من 100 ذراع وارتفاعها كبير[2]. وإذا أردت أن تستخدم الذراع كوحدة قياس كما نفعل نحن فعرضها 140 ذراعاً، ولكل مخزن 4 وجوه يوضع القمح في قعرها العميق، ويمكنكم أن تتخيلوا الكمية الهائلة التي يحتاجها كل واحد من الأهراء حتى يمتلئ.

لا يحتفل المسلمون خلال السنة إلا في يناير ولمدة 3 أيام، وذلك عندما وضع إبراهيم على ركبتيه ابنه والسكين على رقبته، فنزل كبش من السماء وقيل: «خذ الخروف ودع الغلام». وفي تلك المناسبة يحتفل المسلمون ولمدة 3 أيام لا يفتحون محلاتهم، وكلهم يضحّون بالخراف لتوزيعها على الفقراء تيمّناً بتلك الأعجوبة التي أظهرها الله لإنقاذ ابن إبراهيم.

---

(1) يقول الإنجيل بأنها كانت 7.

(2) من الواضح أنه يصف هنا أهرامات الجيزة الثلاثة. لكن بالطبع أن هذا التفسير القديم لكونها أهراء قمح برواية التوراة لا يستقيم أبداً، فهي أقدم بكثير من عصر عزرا (القرن الخامس ق.م)، وما هي إلا قبور ملكيّة لملوك مصر القدامى.

دعونا الآن نتحدث عن الزرافة التي تشبه النعامة، ولكن لا يغطي جسدها الريش بل الصوف الأبيض النقي والناعم، ولها ذنب حصان وأرجل من الخلف طولها 3 أذرع، رجلها رجل حصان وقدمها قدم عصفور والعنق نحيل وطويل طوله 3 أذرع أو أكثر، أما الرأس فهو كرأس الحصان رأسها أشقر وفيه قرنان مثل قرون الخروف المخصي، وتأكل الخبز والعلف مثل الحصان، وللسلطان 4 منها وهي تستحق الرؤيا فهي من أعجب الخلق.

وسنتكلم عن الفيل أيضاً كم هو عجيب، فجلده أسود وأعلى بكثير من أي ثور حراثة عندنا وأضخم، وذنبه رقيق وأرجله كفخذ الرجل العادي ولكنها عريضة في الأسفل كما هي في الأعلى، والأقدام عالية وعريضة أما العنق فقصير وسمين والأذنان تتدليان كالرداء والعيون كبيرة كعيون الثور وكذلك الرأس. ومن الفم يخرج نابان معقوفان كقرون الثور وطول الواحد ذراعان وهي سميكة كبطة رجل عادي. ومن أنفه يخرج مصران شكله كأنه قرن للعزف، وعندما يمده يبلغ طوله 8 أذرع أو أكثر.

يأخذ هذا المصران مقدار صهريج ماء ويشربه في الوقت ذاته الذي تشرب أنت فيه نصف كأس من النبيذ، وبه يأخذ الطعام ليأكل. وعندما تذهب الفيلة لتأكل لا تصمد أمامها أيّة شجرة ضخمة أو جذع. ومصرانه هذا قوي يمكنه أن يهشم الشجرة، وإذا طال أحدهم به يلقيه عالياً في الهواء مقدار 20 ذراعاً ثم يتلقاه بنابيه فيقتله في الحال. ولكل فيل رجل يسوقه، وهو لا يؤذيه لأنه يخاف منه فالفيل يعرف أن صاحبه لا يؤذيه وعندما يطلب منه أن يجلس يحكّ له جلده فيصدر الفيل صوتاً بفمه يشبه صوت البوق ولكن صوت الفيل أقوى.

ولا أريد منك أيها القارئ أن تعتقد بأن الفيل يجلس، فمع أن برازه يشكل جبلاً صغيراً يصل ارتفاعه حتى بطنه، فهو لا يستطيع الجلوس إلا على جنبه. أما إذا جلس على قدميه فلا يستطيع النهوض، لأن أرجله كلها بنفس العرض فلا ينهض إلاّ بعد أن يحرك جسمه ويرتعد بعنف.

وعندما يخوض هؤلاء الناس حرباً بينهم يبنون أكواخاً من الخشب على ظهر الفيل ويضربون بعضهم بالمنجنيق، ويتحكّم صاحب الفيل به وإذا أخطأ يلقي الرجل على رأسه عصا في أعلاها قطعة معقوفة من الحديد حادة فيرتعش الفيل.

والآن سنتكلم عن الحمام الذي يكثر في القاهرة، وهو أبيض كالثلج منقاره وأرجله حمراء، يدخل البيوت ويضع أعشاشه على نوافذها وفي الداخل وفي كل مكان من البيت، ومهما انخفضت النافذة دخل الحمام منها. ولا يؤذيه أحد ولا يُؤْكل لأن قتله ذنب كبير، لذا يكثر في القاهرة وهو جميل.

والآن نتكلم عن طقوس المسلمين الدينية يوم الجمعة وكيف يقومون بها. إذ يصعد رهبانهم كل يوم جمعة أبراج المسجد وينادون الناس يدعونهم إلى الاغتسال، فيبدأ الناس بغسل أذرعهم ومنتصف الرأس من جهة الوجه ثم يغسلون أرجلهم. وبعد ذلك بقليل يصعد الرجل ينادي الناس ليذهبوا لسماع الخطبة، وهكذا يذهب الجميع إلى المسجد وخاصة المساجد الرئيسية.

وعند وصولهم يخلعون أحذيتهم فيتركونها في الخارج ويدخلون حفاة، وعند دخولهم يقبّلون الأرض عدة مرات ولمدة نصف ساعة تقريباً، ثم يجلسون فيأتي القاضي أو أسقفهم ويصعد سلماً فيبدأ بالخطبة والوعظ عن حياة محمد وأصحابه لكي يحذو الناس حذوه، ثم يتكلم عن أشياء أخرى كثيرة. وعند انتهائه يخرج خنجراً من وسطه ويقول للناس: من يعترض فهذا نصيبه. فيبدأ الجميع بالصياح بصوت عالٍ: الله أكبر، آمين. ولا يستطيع أي واحد من المسيحيين أن يخرج في وقت الخطبة من منزله لأنه سيعرض نفسه لخطر الموت، وكذلك لكي لا يُستهزأ به.

والآن سنتكلم عن مدينة القاهرة النبيلة والجميلة وعن كبرها وتنوع سكانها، وعن طرقاتهم، وعن هيبة سلطانهم وزوجاته ونسائه، وكيف وصل إلى الحكم مع كونه مسيحياً مرتداً من أصل يوناني وكان عبداً.

أقول إنّ مدينة القاهرة مساحتها 12 ميلاً وأكثر طولاً، و30 ميلاً عرضاً، ويحيط بها سور من جهة النيل، والجهة الأخرى منخفضة. وللسلطان 7 زوجات وعدد آخر من النساء ولكن السبع هن الرئيسيات وعندما يذهبن خارجاً تخرج معهن الوصيفات في حمايتهن، ولكل زوجة 4 من الخصيان لا يتركون صحبتهن أبداً أينما ذهبن ولا حرج عليهن منهم أمام الزوج. وعندما يذهب السلطان للصيد في مكان يدعى Siriacusso (سرياقوس)، وهو يبعد 5 أميال، يذهب معه عدد كبير من الحاشية وعددهم 10.000 خيال أو أكثر ويأخذون معهم كذلك عدداً من النسور والصقور الصّيّادة وعدداً من الأرانب.

ويخصّص للسلطان جناحاً فيه كل خيرات الأرض وهو كبير جداً ويحتاج إلى 100 جمل لحمله، فهو مقسم إلى أجزاء كثيرة فيه أعمدة من خشب تُنصب الخيمة عليها وعندما تجهز تضمّ عدداً كبيراً من الغرف والصالات بحيث يتعذر عليك أن تعرف في أي غرفة يجلس السلطان إلاّ إذا كنت موضع ثقته. وهناك عدد آخر من الأجنحة المخصصة للبارونات الذين يصحبونه. وعندما يكتمل المعسكر يبدو وكأنه مدينة صغيرة فيها الشوارع والأسواق والبائعون يبيعون ألذ الأطعمة. وعندما يتحرك سيد القاهرة هذا يذهب في حمايته 1000 خيال على يمينه، وهذا العرض من أجمل العروض على الإطلاق.

وهناك عدد كبير من الجمال تحمل مؤناً للرجال وعشباً للأحصنة، والجمل يحمل عادة من 12 إلى 15 مئة رطل، لذلك فهم يمدّون المعسكر بكل السلع جيئة وذهاباً ولعدد هائل من الرجال فالمكان أكبر مما تستطيع أن تتخيل. ولمّا كنا في القاهرة أحضر الأمير للسلطان هدية، وهو أمير دمشقي حسب ما قاله لنا رجل مسيحي من كانديا، وكانت الهدية عبارة عن 100 جمل محمّل بالذهب والفضة، والجمال مغطاة بحرير حتى أقدامها، 20 منها مغطاة بحرير أبيض و20 بحرير أزرق و20 بأخضر و20 بأحمر، كما يلبس الركب اللون نفسه.

* * *

وعندما علم السلطان بوصلهم إلى القاهرة كان يصطاد فلم يعرف ماذا يفعل بتلك الهدية، ولكن عندما رأى جمالها وترتيبها أصدر أوامر بإنزال حمولتها وبدأ السلطان بنداء البارونات معطياً أحدهم قماشاً من الحرير المشغول بالذهب، والآخر قماشاً مشغولاً بالفضة وآخر نقوداً من الذهب وآخر من الفضة، كلاً حسب مقامه. وفي لحظة واحدة وزعت كل تلك الهدايا، ولذلك وبفضل كرم السلطان فهو موضع إجلال واحترام، وهذا ما يميزه عن السلاطين الآخرين. ويمكنك أن تتجول ومعك الذهب في كل أرجاء مملكته دون أن تخاف سواء في صحراء أم في غابة لأن عدله يطبق وتذهب مطمئناً دون أن يعترضك أحد ولكن من المفضل أن يكون معك ترجمان لتستطيع الذهاب أينما شئت.

هذا السلطان كما قلت إغريقي ومسيحي غيّر دينه وكان عبداً من سوريا Soria وجاء صدفة مع سيده الذي أعتقه فأقام صداقة مع عدد من المسلمين كان أحدهم ميسوراً، فنشأت صداقة حميمة بينهما وبدأا بصنع الخير والأعمال الجليلة إلى أن حصلا على مركز وجاه، فعقدا سراً بينهما وهو أن يحتجنا السلطة عندما تسنح لهم الفرصة وبقي هذا الأمر سراً بينهما. وعندما مرض السلطان ومات بدأ السلطان الحالي وصاحبه يتدخلان في الأمر لكي يخمدا الفتن والإشاعات. وعندما استتب لهما الأمر هيمنا على البلاد بالمعروف أو بقوة السيف، ووعد السلطان الحالي صاحبه جزءاً من مملكته ولكن عندما رأى العصا بيده حجز أولاد السلطان الأول جميعاً وأسرهم مع كل أفراد عائلته وذريّته.

هنا قبل أن يُعيّن السلطان يجب أن يحصل على موافقة الخليفة، أي البابا عندنا، وهنا تلكّأ الخليفة بإعطائه المنصب فالسيادة ليست له فما كان من السلطان الحالي إلا أن أخذ الخليفة وأسره واضعاً خليفة آخر مكانه. وعقد مجلساً بعد ذلك وأرسل في طلب وجهاء المدينة ممن يتمتع بالمركز والقوة للخضوع له، وعندما أبوا - يقول المتحدث - وضع كل واحد منهم في كيس ورماه في النيل ليموت غرقاً. وهكذا لم يعرف أحدهم مصير الآخر وكان عددهم 600 رجل، وما زال هذا الأمر يزرع الفزع عند الناس حتى الآن.

أما الآن وقد استتبّ له الأمن فقد بدأ يفكر كيف يستولي على المملكة دون أن ينازعه فيها أحد، ونصب مكيدة لصاحبه كاتباً رسالة لأمير الإسكندرية يطلب منه استدعاء صاحبه واستضافته وحسن معاملته وعدم تركه يرحل قبل القضاء عليه. لذلك فبعد أن حاك السلطان المؤامرة بعث في طلب صاحبه وأكرمه وطلب منه أن يشاركه نصف مملكته، ثم طلب منه طلباً أخيراً مفاده أن يذهب إلى أمير الإسكندرية يسلم إليه رسالة، ولم ينتبه صاحبه إلى المكيدة وذهب إلى الإسكندرية حيث استقبله أميرها بحفاوة بالغة، وطلب منه الإقامة أياماً أخرى ولم يتركه يذهب في كل الأحوال.

لذلك وافق صاحبنا على المكوث، وفي الليلة الرابعة بعد وليمة فخمة على شرفه رُبطت المشنقة في عنقه وشُدّت من هنا وهناك حتى اختنق. وهكذا وبفعل الخيانة استتبّ الأمر للسلطان وصفا له العرش، وسلطته واسعة لأن أرضه واسعة وتحتاج إلى 200 يوم لتجوبها طولاً وأيام كثيرة لتجوبها عرضاً، ويملك أراض شاسعة كدمشق وأكثر، لذلك فلا يدهشنا أن نراه كثير الإنفاق والسخاء بعد الهدية التي أهداها صاحب دمشق كما ذكرنا.

ولقد حذت مدن أخرى حذو مدينة دمشق سنذكر 10 منها ما عدا القلاع والقصور، فالهدايا لا تعد ولا تحصى وهي تغطي مملكة. وتخيلوا الكنوز التي حصل عليها فقط من عائدات المدن الكبرى، وهي في الدرجة الأولى القاهرة مع بابليون ثم دمشق فحلب وحماة وحمص Amussi وصفد Sasseto وبعلبك Malbecco والإسكندرية وطرابلس الشام ومكة حيث جسد محمد (ص). لذلك فمن الممكن أن تتخيلوا ثراء هذا السيد ونفوذه.

قال لي تاجر كانديا شيئاً رائعاً، وهو أن رجال القاهرة ونساءها يمضون نهارهم بين الورود ولا يكفيهم اليوم بكامله لتعطير أنفسهم بالمسك وبماء الورد، وثمنها يبلغ 3000 بيزنطي ذهبي وكل بيزنطي يعادل فيورينياً وربع، ويُدفع هذا المبلغ كل يوم وهذا لا يمنع النساء من المبالغة سعياً لإرضاء أزواجهن.

ويقول الرجل أيضاً إنّ هذا السلطان يرسل كل سنة هدية لشخص يدعى «برستو جوڤانـي» وهو يعيش في الهند ومسيحي، وفي أرضه مسيحيون كفار. وسبب تلك الهدية هو أن الشخص المدعو برستو جوڤانـي لسبب أو لآخر يفتح سدّ نهره ليغمر القاهرة والإسكندرية بالمياه[1]، وهذا النهر المسمى النيل يجري في القاهرة، ويكفي فتح السد لمدة وجيزة حتى يفيض نظراً لكبره. لهذا السبب أي الخوف يرسل السلطان إليه كل عام كرة من الذهب عليها إشارة الصليب تقدّر بـ 3000 بيزنطي ذهبي. وحدود السلطان الأرضية تجاوز أراضي المدعو برستو جوڤانـي.

تركنا مدينة القاهرة يوم الأربعاء صباحاً في 18 أكتوبر، وخرجنا من الأراضي لنجد بساتين حافلة بالتمر والبرتقال والليمون والفاكهة الكثيرة الأخرى. وهذا البلد نبيل حقاً وأوسع مما أستطيع قوله. خرجنا من تلك الأرض لندخل صحراء بابليون، وسرنا مدة 12 يوماً دون أن نجد مأوى أو سقفاً نلتجئ إليه فالصحراء قاحلة ولا ينبت فيها شيء ولا وجود لشجرة أو عشب حي. وفي الصحراء سهل وجبال جرداء، وهناك رمال بيضاء وناعمة كالحرير ولا يمكنك السير عليها دون أن تغوص ركبتاك، لذلك فهي متعبة. وهذه الرمال تبعد عن كنيسة القديسة كاترينا مسافة يوم. عبرنا الصحراء بعون الله تحت شمس حارقة وحرّ شديد، فلم يكن هناك ظل نرتاح تحته والشمس تضرب الأرض صباحاً ومساءاً وحرارتها قادرة على إشعال نار، ولا تسقط هنا الأمطار أبداً.

وصلنا كنيسة القديسة كاترينا يوم ذكرى القديس سيمونِه (شمعون) في 28 أكتوبر وكان يوم جمعة، فاسترحنا اليوم بأكمله وصباح الأحد ذهبنا لزيارة الضريح الذي سنتكلم عنه لاحقاً طالبين المغفرة. وبعد 4 أيام تركنا المكان وكان ذلك يوم الأربعاء 2 نوفمبر، وسرنا في الطريق الصحراوي مدة 12 يوماً دون مأوى أو سقف يحمينا ولا حتى شجرة تتقيّل في ظلها وقت الظهيرة.

---

(1) الصواب أن منبع النيل يوجد في الحبشة وليس الهند طبعاً.

وهكذا سرنا إلى أن وصلنا سهلاً فيه تلال رملية ناعمة بيضاء، وهي تلال صغيرة ارتفاعها مقدار راحة يد وعندما تصعد إحداها تنزل مقدار 30 ذراعاً ثم تصعد الأخرى وتنزل وهكذا كل النهار وهي نظيفة وكلها من عمل الريح. وإذا وجد الإنسان نفسه في مهبّ الريح كان متأكداً من أن رحلته انتهت، فالغبار يطمر الأشخاص.

وفي يوم الخميس من اليوم العاشر من نوفمبر وهو ذكرى القديس مارتينو أضاع الترجمان وعكّامو الجمال طريقهم في التلال، وأمضينا النهار نبحث هنا وهناك، إلى أن جاء الليل فأنزلنا أحمالنا استعداداً للنوم. وما كان كل ذلك إلا مناورة قام بها الترجمان في محاولة لسرقتنا. فعند وضع الأمتعة قال لبعض الجمّالة: «اذهب وابحث عن الطريق الرئيسية»، فذهب اثنان وعاد واحد في آخر المساء قائلاً بأنه لم يجد الطريق، وتخيل وضعنا وقد بدأ الزاد ينقص معنا. وبعد أن صلّينا «السلام عليكِ يا مريم» رجع الآخر يقول بأنه وجدها فسُررنا.

رحلنا في اليوم التالي في الاتجاه المقصود تحت وطأة حر شديد، وفي اليوم التاسع داهمنا رجال بعضهم على الخيل وبعضهم يسير، وعندما اقتربوا منا شد المشاة لجام خيولنا بينما منعنا الخيالة من الحركة. وأخيراً وبعد مشاحنة دفعنا 15 دوقية من الذهب، وأخذوا أشياء تقدر بـ 6 دوقيات ذهبية. ولقد حصل ذلك يوم ذكرى القديس مارتينو يوم الأربعاء 11 نوفمبر.

وتركناهم لنعاود سيرنا في الصحراء إلى أن وصلنا مدينة غزة نهار السبت 14 نوفمبر عند المغيب. في تلك المدينة رفع شمشون أبوابها على عنقه حتى بلغ الجبل وما زال هذا المكان موجوداً. وفي تلك المدينة أيضاً القصر الذي سيق إليه بعد القبض عليه، وهنا أيضاً رفع أعمدته وأسقطها فقتل تحت أنقاضه كل من كان في القصر بما فيهم هو نفسه. وفي تلك المدينة أيضاً ضرب آلاف الفلسطينيين Filistei بفكّ حمار وقام بأفعال كثيرة أخرى. وغزة مدينة كبيرة وجميلة، وفيها أراض خصبة تزرع فيها كل أنواع الفاكهة، وهي حارّة صيفاً وشتاءً.

مكثنا في غزة ستة أيام وهي تقع على الحدود المصرية السورية وتجارتها شهيرة لأن موقعها استراتيجي في سهل وتلك المدن التي سنذكرها لاحقاً تقع كلها على الحدود تلك هي مدن الفلسطينيين Filistei الأوائل وهي: الأولى اسمها رامة أو غاتّا Gatta، والثانية عسقلان، والثالثة ايزودوتّو (أشدود)، والرابعة أكرون (عكا)، والخامسة يافا.

ومن غزة إلى رامة تحتاج إلى يوم للوصول، ومن غزة إلى عسقلان نصف يوم، ومن غزة إلى إيزودوتو نصف يوم، ومن غزة إلى أكرون نصف يوم، ومن غزة ليافا يوم ونصف. وتقع كل تلك المدن على البحر. وهذا البلد جميل جداً، وفي فترة بقائنا اعتصمنا في منزلنا لكي لا نتعرض لتحرّش الناس، إذ لم يكن مألوفاً مشاهدة أشخاص من مستوانا. وكان من اللائق أن نقدم أنفسنا لأمير البلاد، وفعلنا ذلك وكان يجب علينا أن نقبّل الأرض أمامه، ثم ذهبنا إلى أسقفهم فاستقبلنا بترحاب وسقانا وأطعمنا. تركنا غزة الجمعة ليلاً في 18 نوفمبر وكان الحر شديداً، ثم وصلنا قصراً جميلاً يدعى أبوتيجا وفيه مزارع جميلة وعدد من أشجار الزيتون.

تركنا يوم السبت في الساعة التاسعة صباحاً قاصدين قلعة تدعى حبرون وهي كبيرة ويسمّونها مدينة. في هذه الأرض مسجد صغير يحتوي رفات الأنبياء إبراهيم وإسحق ويعقوب ونسائهم. وذهبنا نتقصى كل ما في تلك الأرض فهي بلد جميل وفيها أراضٍ خصبة. ويوم الاثنين 21 نوفمبر تركناها، وفي المساء عند المغيب وصلنا بيت لحم حيث ولد السيد المسيح. وتلك المدينة خَربة جداً وفي الماضي كانت كبيرة أما الآن فتبدو صغيرة لا يتعدّى حجمها الحقل، أما بيوتها فقروية لكنها تحوي مزارع جميلة وأشجار زيتون. وأرض تلك المدينة ليست مستوية فهي كبلدنا فيه تلال ومنخفضات، وفيها نبع ماء عذب وطيب الطعم، وتمرّ عبر الجبال أنابيب لتسقي القدس، ويبلغ طولها من النبع من 30 إلى 35 ميلاً. وتوجد تلك الأنابيب في كل مكان، وهي طريقة جيدة لترطيب الجو وسقيا الناس.

تركنا بيت لحم يوم 22 نوفمبر ووصلنا الساعة التاسعة مساءً القدس حيث مكثنا 11 يوماً، وهنا نخصّ بالذكر حكامها ونبلهم وسنتكلم الآن عن نبل المكان، إن القدس مكان جميل ولكن عليك أن تصعد دائماً في كل مكان تذهب إليه من جوانبها الثلاث، أما الجانب الرابع فلا يوجد أماكن تصعد إليها. وهي تعادل پيستويا Pistoia[1] في كبرها ولكنها أكثر بيوتاً وسكاناً، وفي الحقيقة فهي أكبر من Pistoia، ويحيط بها سور متين الجدران فيه أبراج. وهناك قلعة متينة تدعى صخرة داوود، وهي صلبة وتقع على السور من جهة جبل صهيون في أعلى الباب الذي يؤدي إلى بيت لحم.

بيوت المدينة جميلة وقديمة وفيها شوارع متفرعة ويُحافظ على نظافة المحلات وهذا أمر يسرّ الناظر. والشوارع مغطاة بالآجر الذي تبنى منه السطوح وفيها قناطر ونوافذ[2] يمر عبرها نور وتدخل إليها المياه عندما يهطل المطر فتبقى الشوارع جافة وهناك سوق للخبز وأنواع مختلفة من اللحوم وسوقهم أكبر من سوقنا. أما أرض القدس فقاحلة بشكل عام ويندر فيها الماء العذب.

تركنا القدس يوم 2 ديسمبر في يوم الجمعة مساءً وأخذنا الطريق المؤدية إلى دمشق، وعبرنا أراضيَ جدباء لمدة 7 أيام، ثم وصلنا الجمعة 9 كانون الأول صباحاً بعد الثالثة بقليل إلى دمشق. وما كدنا ندخل حياً إلاّ وقذفنا بحجارة كبيرة وكأننا كلاب[3]، ولم نتمكن من التكلم معهم لذلك كان من الأفضل أن نحتمي، والحمد لله لم يصب أي واحد منا بأذى. وكلما توغلنا في البلد قوبلنا بالعداء، إلى أن وصلنا إلى مكان نزل فيه المسافرون مثلنا وشربنا شراباً أفضل من الذي قدم إلينا في مصر.

---

(1) مدينة في توسكانا قرب فلورنسا وپراتو.

(2) يتكلم سيغولي عن فتحات تصريف المياه في جوانب الشوارع وهو أمر لم يكن شائعاً في أوروپا.

(3) هذه عادة قديمة بدمشق يذكرها كثير من الرحّالين الأوروپيين، مثل البورغوندي برتراندون دى لابروكيير الذي زار دمشق عام 1433 م، والپرتغالي سيباشتياو مانريك الذي زارها عام 1640، والإنكليزي هنري موندرل عام 1697. وسبب ذلك يعود إلى أيام الحروب الصليبية، عندما تعرّضت دمشق عام 1148 لحصار شديد من قبل 3 ملوك، انتهى بفشل مرير.

مكثنا في دمشق شهراً و12 يوماً، وبعد يومين من صولنا مرض 5 من مسافرينا مات منهم اثنان وهما Andrea di messer Francesco Rinuccini فلقد رحل يوم 29 ديسمبر وهو يوم ذكرى القديس توما الكنتربوري، والثانــي هو بييرو Piero الملقب البولونيينو وكان يقطن حي Tintori أو حي الصبّاغين، وبفضل رعاية الله شفي الآخرون. انتقل بييرو إلى رحمته تعالى يوم 15 يناير في ذكرى القديس الأباتــي ماورو Mauro Abate.

الآن سنتكلم عن نبل مدينة دمشق. وهي كبيرة كفلورنسا ومع أرباضها التي تحيط بها تبدو أكبر. والبلد جميل، وبجهاته الثلاث سهول، أما الجهة الرابعة ففيها جبل كجبل القديس ميناتو في فلورنسا، وهناك جبال أخرى مغطاة بالثلج صيفاً وشتاءً[1] ويقولون بأن ذلك من عمل الشيطان. وعلى منتصف الجبل المطل على دمشق بيت يقال بأنه المكان الذي قتل فيه قابيل أخاه هابيل.

أما سور دمشق فذو جدران متينة، وبدناته صلبة يبلغ ارتفاعها 30 ذراعاً تقريباً. وله أبراج كثيرة مدوّرة، وبعد البرج عن الآخر 25 ذراعاً. ثم هناك أسوار مقابلة[2] ويزيد ارتفاعها على 20 ذراعاً ولها أبراج مدورة سميكة كأبراج السور الأول، وتجري فيها أنهر واسعة عرضها 16 ذراعاً أو أكثر، وهي مسوّرة بشكل جيد. ويوجد حقول[3] خارج دمشق فيها كل أنواع أشجار الفاكهة التي ترغب بها نفسك وبكمية كبيرة، وهناك يذهب الرجال والنساء للتنزه. والزهور كثيرة تُصنع منها ألوف القوارير من ماء الورد، وهي الأجود في العالم. وفي الواقع فإن منظر هذا السهل بحقوله الواسعة يخلب الألباب.

وفي داخل المدينة قلعة مشيّدة بالأحجار الجميلة ولها أبراج عالية وبدنات عالية، وتجري فيها مياه ذات مسار كبير. وداخل القلعة 500 بيت.

---

(1) يعني جبل الشيخ إلى الجنوب الغربـي من سهل دمشق.
(2) هذه إشارة واضحة ومهمّة على أنّ دمشق كان يدور بها أسوار مزدوجة، وهو ما يؤكده الرحّالة جورجو غوتشي. راجع ما ذكرناه في: «رحلات في برّ الشام في القرن السابع عشر».
(3) هي الغوطة المشهورة شرقي دمشق.

أما الآن فسنتكلم عن نبل البضائع الدمشقية[1]. هناك عدد لا يحصى منها، وكذلك المحلات في دمشق فلا يمكنك عدّها ولا يوجد مكان دون أن يكون فيه دكّان، وهناك كل ما تشتهيه نفسك وكل ما هو نفيس وجيّد الصنع لذلك ولو أن نقودك كانت في عظم ساقك لكسرته وأخرجت المال لتشتري، لأنك لا تتخيل جودة البضائع، فهي مصنوعة بطريقة ممتازة. هناك أقمشة حريرية من كل شكل ولون هي الأفضل في العالم، وعدد من الأقباع الرفيعة حتى تبدو لدقتها وكأنها صنعت من الحرير، وهي موشّحة ومقصّبة. وهناك أوعية وأوانٍ نحاسية عليها رسومات أشخاص وأوراق من الفضة وهي من أجمل ما رأيت.

وهناك أصحاب صنعة شديدو الاتقان، والشيء الجميل الملفت للنظر هو أنه إذا كان الأب صانعاً لا يمكن لأولاده أن يختاروا صنعة أخرى فالصنعة تورث من جيل إلى جيل، لذلك فهم يتقنون عملهم بشدة. ومحلاتهم نظيفة ومرتبة جداً بحيث تمتع بصرك، وكلها ممتلئة بالبضائع المتراصة، ومهما باعوا فهم يجدّدون ويصنعون بضائع أخرى مكانها، فعندهم كميات كبيرة منها في مخازنهم وبيوتهم التي يسكنون فيها. وفي الواقع إنّ الحديث عن تنوع البضائع في دمشق يحتاج إلى وقت طويل، ومن الأفضل رؤيتها بالعين لأنه لا يمكن وصفها بالكتابة.

والمسيحيون هناك يستطيعون التزود بكل ما يريدون طوال أيام السنة. والشيء الجميل الذي أودّ قوله هو أن الشوارع مكتظة دائماً بالناس، وهم في حالة ذهاب وإياب دائمة، وعددهم كثير جداً حتى أنه يفوق عدد الناس الذين يذهبون لمشاهدة پاليو[2] سان جوڤانـي في فلورنسا. وعندما يأتـي الصيف ترى البائعين يعرضون فاكهتهم في سلات ممتلئة بالثلج ليصبح مذاقها وطعمها ألذ وأطيب.

---

(1) هذا الوصف لسيغولي يفوق ما أورده كل من صاحبيه فريسكوبالدي وغوتشي.

(2) هو لقاء يجتمع فيه المتبارون من مختلف الأحياء الحصان الرابح يدل على فوز الحي. وهو يجري عادة في يوم ذكرى القديس جوڤانـي (حامي مدينة فلورنسا).

والآن سأتكلم عن نظامهم وحمايتهم الليلية. أغلب الشوارع الرئيسية في دمشق مغطاة بالآجر كالذي يغطي سقف البيوت، وهناك فتحات جانبية فيها مصابيح زجاجية تنار أثناء الليل، يبلغ عددها أكثر من 30 ألف مصباح يفصل الواحد عن الآخر 12 ذراعاً. وفي كل حيّ حارس يراقب ويحرس البضائع، ولا أحد يخرج في الليل من غير مصباح إلاّ و سيق إلى الأمير، لذلك فلا أحد يحاول إلحاق الضرر بالآخر. وكذلك يجب على المسيحيين أن يخرجوا ومعهم المصابيح وإلاّ تعرضوا للضرب.

وسأتكلم عن الاحترام الكبير الذي يحظى به أهالي تلك الأرض، فلديهم أجود أنواع الخبز وأجود اللحوم وكل شيء ما عدا النبيذ لأنهم مسلمون ويحرّمه دينهم، وهناك أيضاً نقص في خشب الوقود، فسعر الليبرة 10 دنانير من عملتنا، وبما أن كل شيء يزان هنا فسعر الخشب أغلى من سعر اللحم. ولذلك لا يطهو السكان في بيوتهم، وهناك طهاة كثر في الخارج مثل أرميلّينو Armellino يطهون لك كل ما تشاء من الطيبات.

أمّا بيوت دمشق فهي مبنية بالتراب في الخارج، أما في الداخل ففيها باحة كبيرة تضمّ فسقية ماء وسط الدار. ونبل تلك المدينة يعجزنا عن ذكرها ووصفها لكثرة الأشياء التي لا تعد. مكثنا فيها كما قلت سابقاً من يوم الجمعة صباحاً في 2 ديسمبر وحتى 28 يناير.

ويوم الأحد 29 يناير خرجنا من دمشق متجهين إلى باروتي Baruti (بيروت)، وعندما وصلنا إلى منتصف الطريق تقريباً، أي تلك التي تصل بيروت بدمشق، توقفنا في سهل بين جبلين عرضه 12 ميلاً وطوله 4 أيام مسير أو أكثر، ويسمى سهل نوح، وهو حقل خصب فيه أراض جيدة وزرع حسن. وفي هذا المكان صنع نوح مركبه وقت الطوفان. وهناك في هذا السهل قصر سمي أيضاً قصر نوح[1] فيه قبره ويقال إنّ فيه أيضاً زوجته وعدداً من أولاده.

(1) أي كرك نوح المعروف في البقاع، والكرك في السريانية (ܟܪܟܐ كركا): القلعة.

على هذا السهل وباتجاه البحر يوجد جبل يدعى جبل البقاع Becco ينبع منه جدولا ماء، واحد يسمى جور والآخر دانو، ومن هنا أطلق اسم جوردانو على النهر الشهير، ذلك أن النبعين يصبان فيه. عبرنا السهل وصعدنا جبالاً عالية صعبة[1] حتى وصلنا إلى بيروت نهار الأربعاء بعد الثالثة في شهر فبراير.

كانت بيروت Baruti زمن المسيحيين جميلة جداً، فأرضها وبيوتها كبيرة ومصنوعة من الحجارة المصقولة جيداً، ويوجد كل شيء في بيروت حتى النبيذ وهو الأجود على الأرض، والبرميل يصل سعره إلى 20 من عملتنا، أما ليبرة الأسماك البحرية فتصل إلى 2 من عملتنا أو أقل. وهناك لحم يأتـي من كل مكان، وعندهم كل ما يغذي الجسم.

أما أرضهم فليست مسوّرة وليس هناك أنهار، ولقد شُيّد حصن كبير من جهة البحر جيد الصنع. وسبب عدم تسوير المدينة هو أنهم لا يريدون لها أن تصبح حامية للمسيحيين فيعتصموا فيها، لذلك لا يريدون تحصينها. ينمو في بيروت الزيتون، وفيها عدد كبير من الأخشاب، وحِمل الجمل منه يصل إلى 5 فيوريني من عملتنا، وهي تعادل حملين من الحمير.

* * *

تركنا بيروت يوم الأربعاء في العاشر من أبريل. وصعدنا مركب ميسّر نيكولو ريتشو فينبزيانو حيث بقينا واقفين كل هذا النهار والنهار اللاحق. وفي اليوم الثالث باكراً 12 أبريل مضينا بفضل الله ونصبنا أشرعتنا متجهين نحو ڤينيسيا، وأبحرنا في جو جميل. ثم عاكسنا الحظ وهاج الموج واستمرت الريح حتى 25 أبريل، وحينذاك ضاعت وجهتنا ولم يعرف أحد أين نحن لا البحارة ولا ربّان المركب، وشاء الله أن نجد أنفسنا في 25 أبريل يوم ذكرى القديس ماركو قرب أرض البربر، ولو أننا لم نكن محظوظين لكنّا وقعنا في أيدي البربر عبيداً، لكننا نجونا من هذا الخطر.

(1) أي سلسلة جبال لبنان الغربيّة، ومرقاها في ظهر البيدر والمتن الأعلى صعب حقاً.

عدنا نبحر في عرض البحر، ووصلنا ڤينيسيا يوم 21 مايو. وكان المركب مثقوباً، فكان يتسرب ما يقارب 100 برميل ماء، فكان 7 أشخاص يتناوبون كل 3 ساعات لإفراغه. لذلك كنا حقاً في خطر شديد، وبفضل المسيح وأمه البتول مريم والقديسة كاترينا وكل القديسين في الجنة بحمايتهم ورعايتهم وصلنا سالمين.

* * *

هنا سنتكلم عن رفات جميع القديسين الذين زرناهم في الأراضي المقدسة ما وراء البحار في القدس حيث يوجد الصليب يتم الغفران عن الذنب لكل إنسان يعترف ويتوب وحيث لا يوجد الصليب يتم الغفران لـ 7 سنوات و40 يوماً. في البدء عند دخولك القدس يحصل الغفران، وعند دخول الكنيسة التي تحتوي القبر المقدس يطلب الغفران. في الكنيسة الحجر الذي استند إليه المسيح وهو مدهون بالدهن المقدس ومغطى بالغطاء المعطر.

وكنا هناك وقت الغروب حيث ضريح السيد المسيح، وفي جبل الجلجلة Calvario حيث صلب ومات كانت الساعة السادسة. وهناك موقع يسمى الجُلجلة Golgota، وهناك كنيسة القديس جرجس، وفي نفس المكان ذاته وُجد رأس سيدنا آدم. وفي جبل Calvario يوجد العمود الذي وضع عليه المسيح متوّجاً بالشوك وحيث بصقوا على وجهه وصفعوه، وحيث صُلب اللصّان. وهناك كنيسة القديسة هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين. وهناك المكان الذي سجن فيه المسيح، والمكان الذي ظهر فيه على مريم المجدليّة (ماريا مادلين) بهيئة مزارع. وهناك العمود الذي ضرب عليه المسيح، وهناك الكنيسة التي شيّدت على شرف ماريا مادلين. وهناك المكان الذي وقفت فيه السيدة العذراء مع القديس يوحنا الإنجيلي في درب الآلام. كل ذلك موجود داخل كنيسة الصرح المقدس.

* * *

وفي الخارج 4 كنائس: الأولى للسيدة العذراء والقديس يوحنا الإنجيلي، والثانية للقديس ميخائيل رئيس الملائكة arcangiolo، والثالثة للقديس يوحنا المعمدان، والرابعة للقديسة ماريا مادلين. وقريب منها المكان الذي توقف فيه المسيح ليرتاح من ثقل الصليب وساعده سيمونِه (شمعون القيريني)على حمله. وداخل الكنيسة المكان الذي كانت تذهب إليه العذراء ماريّا للمدرسة. وهناك المكان المسمى ليتوتروتوس[1] الذي جلس فوقه بيلاطس للمحاكمة عندما حكم على المسيح بالموت، وقربه مسكن بيلاطس الذي قُيّد فيه المسيح وتُوّج بالشوك وعُذّب بمرارة.

وهنا بيت حنّة (آنا) حماة قيافاس حيث وجّه العبد صفعة للمسيح قائلاً: تقول نعم للكاهن. وهناك بيت هرقل حيث ضُرب المسيح وأُلبس لباساً أبيض، وعُذّب ولم يجب فبعثه هيرود إلى بيلاطس. وهناك منزل قيافاس الذي كان أميراً وكاهناً، حيث بصق على وجه المسيح وعذبه كل الليل. ومنزل سيمونِه (شمعون) الفريسي Fariseo الذي برّأ مريم المجدليّة (ماريا مادلين) من ذنوبها.. «إيمانك خلّصك» اذهبي بسلام. وهنا منزل القديسة حنّة (آنّا) أم العذراء مريم (ماريا) حيث ولدت، وهنا موقع الكسيح الذي شفاه المسيح بعد 38 سنة من مرضه.

وهنا باب أوريا Aurea حيث دخل السيد المسيح مدينة القدس على ظهر حمار، وأتاه عدد من الناس حاملين سعف النخل وأغصان الزيتون ذاكرين وممجّدين اسم الرّب. ومنذ ذلك الوقت ولا يفتح هذا الباب. وهناك في المدينة المعبد الذي وضعت فيه مريم العذراء طفلها في ذراع القديس سيمونِه فقال[2]:

Nune Dimittis sercum tuum, Domine, secuundum verbum tuum in Pace.

---

(1) أرضه من الرخام وهو في دار الحكم Pretorio العائد لبيلاتو (بيلاطس).

(2) منذ أن ترجم إيرونيموس أواخر القرن الرابع إلى اللاتينيّة أسفار التوراة والإنجيل من اليونانية، صارت اللاتينية لغة الإنجيل الرّسمية بالنسبة للكاثوليك، وسُمّيت ترجمته: فولغاتِه Vulgate (أي الشعبيّة)، وكان ذلك بأمر البابا داماسوس الأول (366-384 م).

وقرب نهر قِدرون Cedron المكان الذي رُجم فيه القديس إسطفان، وفي هذا المكان أُخذ الخشب الذي صنع منه الصليب في Cedron. وفي منتصف وادي القدس كنيسة ذات قبة عند دخولك تنزل 38 درجة أو 40، وهناك قبر السيدة العذراء، وفي تلك الكنيسة سمعت القداس مرتين، وأيضاً في كنيسة المسيح سمعت القداس مرتين وفي الوادي نفسه اتخذ الحكم الأخير. وهناك المغارة التي كلّم فيها السيد المسيح الرب غارقاً في عرقه ودمه. وهناك حقل جَتْسِمَني Getsemani الذي كُبّل فيه المسيح من قِبَل اليهود وقبّله يهوذا الخائن. وهناك المكان الذي قطع فيه القديس بطرس أذن عبده. وعلى جبل الزيتون تركت السيدة العذراء حزامها للقديس توما الحواري قبل صعودها إلى السماء. وهنا المكان الذي شاهد فيه السيد المسيح القدس وبكى قائلاً: «أيتها المدينة لو عرفت لبكيتِ».

وفي ذلك المكان المسمى الجليل ظهر السيد المسيح على الحواريين، وهناك المكان الذي كانوا ينامون فيه عندما كان المسيح يتعبد ربه قائلاً: ألا تستطيعون السهر معي ساعة؟ وعلى قمة الجبل حيث هجم اليهود على المسيح مع أتباعه، ومن هذا المكان صعد إلى السماء وترك أثر قدمه المقدس. وعلى جبل الزيتون المقدس قبر القديس پيلاجيو قرب مكان يدعى «بيت فاجي» Beffage حين قال المسيح لأتباعه: «اذهبوا إلى القصر تجدون حماراً مربوطاً»، فذهبوا وفعلوا ما أوصاهم به.

وهناك المكان الذي ظهر فيه المسيح على القديس يعقوب الحواري قائلاً: «انهض أخي يعقوب وكُل». وهو الذي أحيى ابنه من الموت وقدّس المسيح الخبز وأعطاه للقديس يعقوب. وهناك النبع الذي كانت فيه العذراء تغسل ملابس ابنها المسيح. وهناك بركة ماء طلب قربها المسيح من الأعمى أن يذهب ويغتسل، فأطاع المسيح وتحرّر ورد إليه بصره. وليس بعيد من هنا المكان الذي قطع فيه اليهود النبي إشعيا Isaia بالمنشار المعد للخشب. وهناك حقل aceldamache أو «حقل الدم» حيث أُسلم المسيح بـ 30 ديناراً.

وهناك المكان الذي علّم فيه المسيح أتباعه، وهناك في جبل صهيون مكان يدعى Gallicantus حيث تاب القديس بطرس عن إنكاره للمسيح 3 مرات. وهنا المكان الذي حاول فيه اليهود أخذ جسد العذراء من يد الحواريين الذين أرادوا دفنها في وادي يهوشافاط Giosafà.

وفي ساحة جبل صهيون كنيسة القديس سلڤادور وفيها المكان الذي ظهرت فيه الملائكة على الثلاث نساء المدعوات مريم، والسجن الذي وُضع فيه المسيح، والعمود الذي جُلد عليه في بيت قيافاس. ووصلنا إلى ساحة جبل صهيون وهناك المكان الذي أقام فيه القديس يوحنا الإنجيلي القداس للسيدة مريم قبل وفاتها. وهنا أيضاً المكان الذي منه انتقلت السيدة مريم إلى السماء أمام الحواريين. وهنا المكان الذي انتُخب فيه القديس متّى بعون الله خلفاً للخائن يهوذا. وهنا جلست السيدة مريم العذراء بعدما انتقل المسيح إلى السماء. وهنا جلس المسيح يدعو إلى الله، وهنا جلست السيدة مريم تستمع إلى الدعاء، وهنا قبر داود وسليمان.

وهنا دُفن القديس اسطفان بعد رجمه، وهنا الشاهدة التي رفعتها الملائكة من جبل سيناء لتضعها في القدس على جبل صهيون، وقيل بأن مريم العذراء أرادت أن تراها. وهنا المكان الذي غسل فيه المسيح أقدام الحواريين، وهنا كنيسة ظهر فيها المسيح على القديس توما وعلى الحواريين الآخرين عندما بُعث من جديد. وهنا وضع القديس توما يده وأصبعه في ضلع المسيح، وهنا ظهر المسيح في عيد الحصاد Pentecoste على الحواريين فتكلموا بجميع اللغات بفضل روح الله. وخارج تلك الكنيسة قطع رأس القديس يعقوب Jacopo Maggiore.

وهنا المكان الذي ظهر فيه المسيح على الثلاث نساء المدعوات مريم، وهنا المكان الذي ركب فيه المسيح على الحمار يوم أحد الزيتون. وهناك قصر بيت عَنيا Bettania حيث أعاد المسيح بعث إليعازر، وما زال مكان الدفن موجوداً، وهناك مكان القديسة ماريا مادلين ومنزلها.

وكذلك المكان الذي التقت فيه بالسيدة العذراء ومع المسيح أيضاً قائلة: «لو كنت هنا ما كان أخونا مات». فذهب معهن إلى المكان الذي مات فيه إليعازر. وقرب بيت عَنيا Bettania أيضاً المكان الذي استقبلت فيه السيدة مريم العذراء المسيح وحضّرت له العشاء. وهنا أيضاً العمود الذي وقف عليه السيد المسيح ليستريح.

والآن نذهب إلى نهر الأردن، وهنا المكان الذي فيه جاء الأعمى يقول: «أنا المسكين ابن داوود». وهنا المكان الذي صام فيه السيد المسيح أربعين يوماً وليلة، وهو مكان عال ومبارك. وهناك المكان في Genico حيث الشجرة التي صعد إليها زَكّا Zaccheo ليرى وجه المسيح فأعطاه ليأكل. وعلى بعد 4 أميال كنيسة يوحنا المعمدان وفيها يده ينقص منها أصبع. وفي نهر الأردن عمّد يوحنا السيد المسيح، وهناك البحر الميت الذي أُهلكت فيه سدوم وعمورة، ولا يحتوي البحر على سمك ولا أي شيء حي آخر. وهناك قريباً الصحراء التي تاب فيها القديس جيرولامو. والآن نتكلم عن بيت لحم، فهناك الكنيسة حيث ولد السيد المسيح وهي كبيرة وجميلة. وهي المكان الأكثر بركة في العالم.

وهناك المهد الذي وضعت عليه مريم العذراء طفلها، ولدته في مكان يحوي القليل من الشعير ويحيط بها ثور وحمار، وكان ملفوفاً بثياب متواضعة رثة. وهناك جاء المجوس وأهدوه البخور والذهب والمِرّة. وهنا المكان الذي طُهّر فيه المسيح. والمكان الذي نزل فيه المجوس لإعطاء الهدايا. وهنا المكان الذي توقف فيه النجم الذي ظهر على المجوس.

وهنا كنيسة مباركة ترجم فيها القديس جيرولامو الإنجيل من العبرية إلى اللاتينية. وهناك قبر الأبرياء الذين قتلهم هيرود، وهناك قبر جيرولامو الذي دفن فيه، وقبر القديسة پاولا والقديس أوستاخيوس Eustacchio . وهناك بيت النبي إيليا، وعلى بعد ميل قبر راحيل. وهناك المكان الذي نبتت فيه النخلة التي أكلت العذراء من ثمرها.

وعلى بعد ميل الكنيسة التي أعلنت فيها الملائكة للرعاة عن مكان ولادة المسيح، وعلى بعد ستة أميال الكنيسة التي دفن فيها الأنبياء الـ 12.

وفي بيت لحم مدينة اسمها حبرون (الخليل)، فيها دفن 4 أنبياء وهم: آدم وإبراهيم وإسحق ويعقوب مع نسائهم الأربعة وهن: حوّاء، ليئا، سارة، وربقة. وفي وادي مَمرا Mambre قرب حبرون المكان الذي شاهد فيه إبراهيم ثلاثة رجال، وكان واحد منهم فقط يتعبد. وعلى بعد 5 أميال من حبرون الصحراء التي صلّى فيها القديس يوحنا المعمدان. وعلى بعد 5 أميال من بيت لحم نبع كان يُعمِّد فيه القديس فيليب باسم الرّب. وقرب بيت لحم وعلى بعد ميل استراحت السيدة العذراء عندما كانت حاملاً في طريقها إلى بيت لحم. وعلى بعد ميلين من حبرون وخارج المدينة المكان الذي خلق فيه الله الإنسان الأول. وعلى بعد 4 أميال المكان الذي تاب فيه آدم لمدة 100 سنة.

وعلى بعد 5 أميال عن القدس منزل زكريا الذي حيّت فيه العذراء القديسة إليصابَت. وقرب القدس الكنيسة التي نبتت فيها الشجرة المباركة. وباتجاه مدينة الرّامة وعلى بعد ميل قبر النبي صموئيل، وقرب الرّامة أيضاً قصر يدعى عمواس Emaus وفيه طلب الحواريان قسم الخبز. الآن وفي شكيم[1] تجد بئر يعقوب Giacob حيث جلس السيد المسيح مرهقاً. وهنا تكلم مع المرأة السامريّة قائلاً: «أيتها المرأة اسقني». وعلى بعد 4 أميال سَبَسطية[2] Sabastia حيث دفن يوحنا المعمدان بين عوبَديا وإليَشاع Eliseo. وفي القرب من الجليل مدينة الناصرة، وهناك كنيسة تحت الأرض ذات قبّة، وفيها حيّى الملاك جبريل السيدة مريم قائلاً: «السلام عليكِ يا مريم يا ممتلئة نعمةً»[3]:

Ave Maria Gratia Plena Dominus Teuum.

---

(1) شكيم: الاسم القديم لنابلس.

(2) ما زالت هناك آثار رومانية رائعة تدل على عظمتهم.

(3) أيضاً باللاتينيّة اللغة الرّسمية للإنجيل بالنسبة للكاثوليك. وأول ما دوّن الإنجيل باليونانية لغة الكتابة آنذاك، لكن المسيح لم يتكلم اليونانية ولا اللاتينية بل الآرامية فحسب.

وخارج مدينة الناصرة وعلى بُعد نبع ماء عذب كان يشرب منه المسيح ويحضر لأمه لتشرب، وكانوا فقراء جداً. وبعد الناصرة جبل طابور Tabor حيث ظهر السيد المسيح بملامح أخرى أمام القديس بطرس ويوحنا ويعقوب، وكان يتوهج وجهه أكثر من توهج الشمس وملابسه بيضاء. وبعد جبل طابور وعلى بعد 10 أميال بحر الجليل حيث وجد صيّادين يصطادان فقال لهما: «تعاليا معي» أنتما صيادا أسماك ولكنكما أيضاً تصطادون الرجال، فذهبا معه. وعلى الماء مشى السيد المسيح دون أن تبتلّ قدماه. وبالقرب المكان الذي ذهب فيه المسيح إلى حفل زفاف يوحنا الإنجيلي(1) وحوّل الماء إلى نبيذ.

وعلى جانب ماء الجليل المكان الذي أطعم فيه المسيح 5000 رجل بخمسة أرغفة خبز وسمكتين، ما عدا النساء والأطفال. وهناك المكان الذي ولد فيه يوحنا الإنجيلي، ويبعد عن القدس 10 أميال.

وقرب بيت لحم ظهر النجم للمجوس. وعلى بعد ميل كنيسة القديس نيكولا، ويقال بأن في تلك الكنيسة صليب السيدة العذراء. وفي خارج القدس الخشب الذي استخدم لصلب المسيح.

والآن نأتـي إلى دمشق: على بعد 12 ميلاً كنيسة جميلة باسم القديسة مريم في صيدنايا، حيث توجد صورة للعذراء يخرج منها زيت ومَن، وحصلت أعجوبة كبرى. وداخل مدينة دمشق البيت الذي اهتدى فيه بولس وعمّده القديس حنانيا. وخارج دمشق المكان الذي قطع فيه رأس القديس جرجس، وحسب قول اليونان قتل خارج مدينة رامة وهي مدينة الفلسطينيين Filistei. وعلى بعد ميل من دمشق المكان الذي سمع فيه بولس صوت المسيح يقول له: شاؤول لماذا تضطهدنـي! وهناك نافذة أُخذ منها القديس بولس عندما كان يتّبع المسيح، ولقد حاول المسلمون سدّ تلك النافذة لكنهم لم يستطيعوا. وفي دمشق البيت الذي سكن فيه القديس بولس بعد اعتناقه للمسيحية.

(1) يقول إن القديس يوحنا تزوج ولكنه بقي أعزب والزفاف كان لشخص آخر.

الآن نتكلم عن بيروت: هناك كنيسة القديس جرجس خارج الأرض على بعد ميلين. وهنا المكان الذي قتل فيه جرجس التنين. وعندما حكم المسيحيون بيروت حصلت معجزة تقول بأنّ رجلاً مسيحي أجّر بيته ليهودي، وعندما عاد اليهودي للبيت وجد بأن المسيحي قد ترك له طاولة عليها صورة السيد المسيح مصلوباً، فغضب اليهودي وطلب من أقربائه وأصحابه اليهود أن يأتوا فجاءوا وبداؤا بطعن الصورة بالرّماح والسهام. ومن شدّة الصخب دخل مسلمون وشاهدوا ما يصنعه هؤلاء اليهود حيث خرجت كمية من الدم كبيرة، فعادوا إلى أميرهم وقصّوا عليه ما شاهدوا، فأمر بالقبض على هؤلاء اليهود وقطّعوهم إرباً.

وصادف أن مرّ في هذا المكان رجل من مدينة بروجِه Bruge عائداً من الصّرح المقدس، فسمع وهو في بيروت بتلك الأعجوبة، فوجد طريقة للحصول على الدم، إمّا بواسطة المال أو بحجّة الإقناع. ثم انطلق من بيروت عائداً إلى ڤينيسيا، وتكلم مع أحد أصدقائه عما فعله، فاشترى صديقه نصف هذا الدّم ووضعه في كنيسة القديس ماركو، وهم يعرضون هذا الدّم مرتين في السنة: مرة في يوم الصعود إلى السماء ascensime ويوم الجمعة الحزينة. أما الشخص الآتي من بروجِه Bruge من الفياندر Fiandre فوضع نصف الدم الآخر في كنيسة تسمى باسم القديسة بربارة أو ناستازيا، وهو يعرضه كل يوم جمعة في جمع مهيب، وأيضاً في مناسبات وأعياد أخرى.

وعندما كانت بيروت تحت حكم مسيحي أنشأوا كنيسة كبيرة وجميلة، ولكن عندما حكم المسلمون المدينة دمّرت هذه الكنيسة. وبموافقة السلطان عاد المسيحيون وبنوا كنيسة صغيرة من جديد وسموها كنيسة القديس سلڤادور، وترأسّها رهبان من الفرنسيسكان على شرف المسيح. الآن وفي جبل سيناء كنيسة القديسة كاترينا وفي الكنيسة رأس وعظمتان من القديسة، وفي الكنيسة نفسها جثمان القديس يوحنا Olimaco والقديس Chimento والقديس نوفريو، وبالقرب توجد كنيسة القديسة ماريا Piaggeria .

وبالقرب توجد كنيسة القديس إيليا، وهنا تاب وتكلّم مع الرب. وقرب كنيسة القديسة كاترينا جبل عالٍ في قمته أعطى الله النبي موسى كتاب العهد. وهنا بدأنا الصعود إلى الجبل، وأما رهبان الكنيسة فليسهلوا الصعود للحجّاج وضعوا عدد كبير من الدرجات الحجرية ويبلغ عددها 14 ألف درجة، ما عدا المناطق التي تستطيع أن تسير فيها دون حاجة إلى التسلق. وكما قلت في قمة الجبل المكان الذي أعطى فيه الله النبي موسى كتاب العهد، وهنا طلب الله منه أن يقف ويكلّمه أربع ساعات، ثم أعطاه الكتاب ليحكم شعب الله. هنا وفي هذا المكان بنيت كنيسة صغيرة على شرف السيدة مريم، وفيها عدد من أجساد القديسين. وفي هذا المكان نظر النبي موسى إلى أسفل الجبل فرأى خيطاً من النار يصعد نحو السماء، وهذا النار يخرج من شجرة عليّق لم تتعرض للتلف أبداً. وهنا النار يعني نزول الروح المقدسة إلى الأرض ليأخذ شكل السيدة العذراء. وهنا موضع الكنيسة المباركة، وعند نزول الجبل من الجهة الأخرى منحدرات صعبة وخطرة، وهناك كنيسة صغيرة تسمى كنيسة مريم الرحمة. وهناك 8 رهبان في خدمة الكنيسة، ولاستضافة الحجّاج أقاموا حديقة تحيط بالكنيسة يقال بأن النبي موسى صنعها بيده ووضع فيها بركة ماء، والحديقة مظللة بأشجار الزيتون والخوخ والتين وفاكهة أخرى وهي كبيرة وجميلة.

وعلى جانب الجبل المكان الذي تاب فيه القديس نوفريو على صخرةٍ كبيرة وشُيّد فيه مكان للصلاة كبير. والآن عند وصولنا للكنيسة طلب منا الرهبان أن نتخلى عن كل ما هو ثقيل قبل صعود الجبل لأن الطريق طويلة وصعبة، فوضعنا أحمالنا وانطلقنا بمعونة الله إلى موضع القديسة كاترينا البتول. ومن لم يجرّب صعود ذلك الجبل لا يمكنه تخيل المشقة التي عانيناها، فهناك مواضع كثيرة يجب أن تتسلق فيها بيديك وأرجلك، وإذا لم تضعها في المكان المناسب يمكنك اعتبار الرحلة انتهت. أخيراً وبعون الله وصلنا القمة تقريباً حيث استرحنا، وللوصول إلى أقصى القمة علينا أن ندور بشكل دائري، وهناك صخور ناتئة وكبيرة وعليك عندما تصل الواحدة أن تنتقل إلى الأخرى مباشرة.

وبين الواحدة والأخرى هاوية، وهنا على صخرة من الصخور وضعت الملائكة جسد القديسة كاترينا بعد قطع رأسها في الإسكندرية، وما زال موضع جسدها محفوراً على الصخر، وبقيت الملائكة تحرس جسدها مدة 500 سنة. وهنا وكما شاء الله بنيت كنيسة القديسة كاترينا حيث رُفع جثمانها ليوضع في الكنيسة وما زال يعرض أمام الحجّاج حتى اليوم. ويوجد رأس وعظمتان، والحقيقة أن رأس القديسة كاترينا مبارك، فهو من العنق إلى الرأس يخلو من أي زينة، فترى جلد الوجه وكأنها قضت منذ فترة وجيزة. وهذا الرأس ينضح المَن باستمرار. الآن ونحن في المكان الصخري وقفنا جميعاً وأخذنا قطعاً من الأحجار حيث كان يجثم الجسد في هذا المكان الذي وضعته فيه الملائكة. وهذا المكان خال من السكن وهو قاحل. ومرة أخرى أقول لك أيها القارئ بأن هذا المكان حيث كان يجثم الجسد قد تعرّض مراراً للرياح والمياه، ولكنه ما زال يفوح برائحة زكية ومعطرة لا يمكنك أن تتصورها.

ومن ذلك المكان المرتفع 8 آلاف ميل شاهدنا بلداً كبيراً، وكذلك رأينا البحر الأحمر. وعلى بعد 15 ميلاً مرّ النبي موسى وأتباعه عند هروبهم من بطش فرعون الذي لحق بهم. بعدما مكثنا بعض الوقت على الجبل حان موعد نزولنا، وكان النزول أصعب من الصعود بسبب المنحدرات الصعبة والخطرة، وعدنا إلى الكنيسة كنيسة سيدة الرحمة العذراء حيث تركنا أمتعتنا، فوجدنا الرّهبان وقد هيؤوا لنا المائدة دون أن نطلب منهم ذلك، وهذه هي عادتهم مع جميع الحجّاج فهم يعرفون مشقة الصعود والنزول.

الآن ذهبنا إلى صحراء بابليون وأخذتنا الرحلة 12 يوماً. وخارج بابل مكان يدعى المطريّة Matarea وتبعد عنها 4 أميال. ولم نجد في الصحراء مأوى أو سقف. وفي هذا المكان المدعو المطريّة Matarea توقفت العذراء مع ابنها المسيح فطلب ماء للشرب لم يكن معها، فبدأ يضرب الأرض بقدميه الصغيرتين فنبع ماء عذب هو الأطيب على هذه الأرض.

وهناك سقف يحمي الماء وجدران من الرخام المحفور، وعلى بعد 100 قدم نبع عذب آخر كانت السيدة العذراء تغسل ملابس طفلها عنده ثم تنشرها على حقل مجاور فيه أشجار يُتخذ منها بلسم لا مثيل له. وهنا في هذا الحقل شجرة تين التجأ إليها المسيح هرباً من اليهود، وكل من دخل وأكل من الشجرة ذهب وجع صدره وكليته. وكذلك يفعل المسلمون فهم يؤمنون بتلك المعجزة.

عند وصولنا إلى بابليون زرنا 5 كنائس ما زالت قائمة تمجد الله في الكنيسة الأولى ذهبت أدعو القديس توما الحواري، حيث حقق معجزات كثيرة في هذا المكان وهناك الكثير ممن اعتنق المسيحية في هذا المكان ويسمونهم مسيحيو الحزام لأن السيدة العذراء عندما صعدت السماء تركت حزامها عند القديس توما الحواري. إن مسيحيي الحزام كثيرون جداً وينتمون إلى بلاد كثيرة وأغلبهم من الهند وهم أعداء المسلمين. والكنيسة جميلة ومزينة. والمسيحيون التابعون لتلك الكنيسة لا يتناولون على طريقتنا بل يأكلون الخبز المطهو. ثم ذهبنا لزيارة كنيسة القديسة بربارة، وهي تبعد عن الكنيسة الأولى نصف ميل وفيها جسد القديسة، وتحققت بها معجزات عديدة وهي تابعة لمسيحيي الحزام.

على مسافة ميل ونصف دخلنا كنيسة القديسة مريم ذات الدّرج Santa Maria della Scala وصعدنا درجاً حجرياً مؤلفاً من 20 درجة، وداخل الكنيسة عمود من الحجر عليه صندوق فيه صورة العذراء محفورة، وهنا تحصل معجزة فبعد كل قداس يصدر برق من السماء لا ينقطع إلا عندما ينتهي القداس. وهناك أيضاً تظهر حاملة كتاباً في يدها. وعلى بعد نصف ميل دخلنا كنيسة الكهف وتنبعث من هذا المكان رائحة زكية. وفي هذا المكان التجأت العذراء مع ابنها المسيح هرباً من هيرود الذي بعث لقتله. وإذا أردت دخول المكان الذي مكثت فيه العذراء عليك أن تنزل سلماً من الحجر فيه 9 درجات. وهنا مكثت العذراء مع ابنها 7 سنوات. وتنبعث رائحة زكية، وفي الغرفة نافذة كانت تضع العذراء ابنها عليها. في هذا المكان تتحقّق التوبة ويُغفر الذنب. كل تلك الأمكنة جميلة جداً وهناك رخام على الأرض وتزيينات جميلة ومباركة.

على بعد ميل تقريباً كنيسة القديس مارتينو وفيها جسده، ولقد عانقناه جميعاً تيمناً وبركة، والكنيسة تخضع للرهبان اليونان (الرّوم) وللكنيسة قبّة.

في الإسكندرية زرنا الأعمدة التي كبّلت عليها القديسة كاترينا بسلاسل حديدية، وزرنا المكان الذي سُجنت فيه، والمكان الذي قُطع فيه رأسها بين العمودين، وبفضل الله أتت الملائكة لتأخذ جسدها وتضعه على صخرة جبل سيناء.

* * *

والآن سنتكلم عن جميع الذخائر والهياكل المقدسة التي شاهدناها في ڤينيسيا: شاهدنا جثمان القديسة لوتشيا Santa Lucia، وعندما كنا في مدينة الإسكندرية شاهدنا المكان الذي قطع فيه رأس القديس ماركو الإنجيلي، وهناك كنيسة صغيرة. وفي ڤينيسيا في دير لراهبات القديس زكريا، وعلى المذبح شاهدنا جسده وجسد القديس غريغوريوس Ghirigoro الناصري Conjessore وجسد الشهيد ديودوروس Deodoro. وفي كنيسة القديس كريستوفانو ركبة وأصبع القديس، وخارج ڤينيسيا في جزيرة زرنا كنيسة القديس أنطونيو، وفيها ضرس وبعض البقايا الأخرى.

خارج ڤينيسيا أيضاً جزيرة زرنا فيها كنيسة القديس جرجس وبها ذراعه. وفي الكنيسة ذاتها جسد القديس بولس الشهيد ورأس القديس Felice. ثم زرنا كنيسة القديسة هيلانة أم الأمبراطور قسطنطين وهي خارج ڤينيسيا في جزيرة وشاهدنا جسدها، وهناك جزء من خشب الصليب وأصبع من يد الإمبراطور قسطنطين وأصبع من يد القديس يعقوب Jacopo الحواري. وفي مورانو خارج ڤينيسيا على المذبح 198 جسداً للأطفال الأبرياء وهم ملتفون، وقد غرست السكاكين في أعناقهم وصدورهم، وبدت جراحهم وكأنها حديثة لم يمض وقت طويل على موتهم. وكان عددهم 200 إلا أنه عندما وقع الصلح بين هنغاريا وڤينيسيا بعث حاكم ڤينيسيا لملك هنغاريا طفلين فغدا العدد 198.

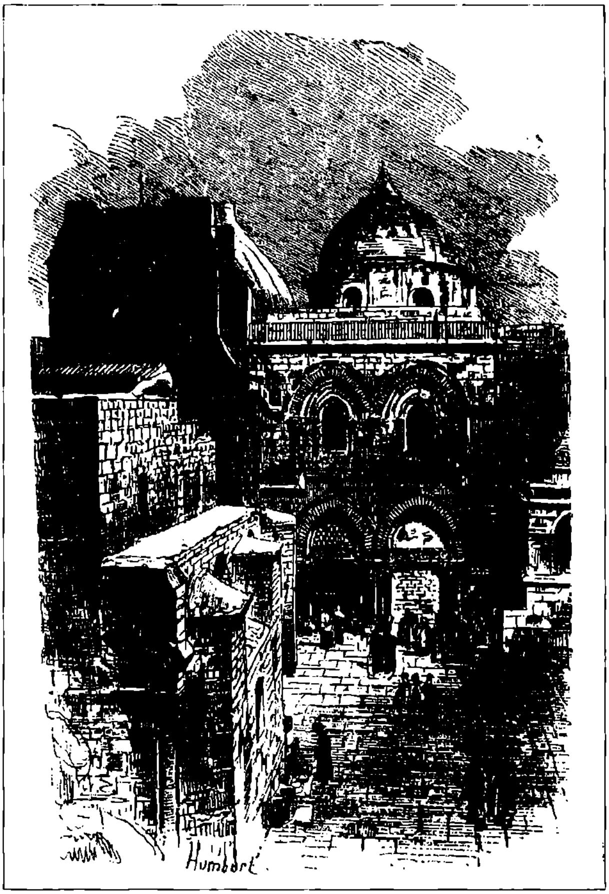
زرنا مشفى يسمى مشفى الـ Sepolcro «الضّريح المقدس» وفيه ضرس Golia العملاق جالوت، ووزنّا الضرس فكان يزن 29 ليبرة و 9 أونصات. ولقد قتل الملك داوود جالوت بواسطة مقلاع الحجارة. وفي هذا الموضع قرب بيت لحم ظهر الملاك للرعيان ينبئهم بولادة المسيح.

سنتكلم هنا عن بعض الأشياء التي نسيناها: فلقد حدث بأن شحّ زاد رهبان كنيسة القديسة كاترينا وقضت الفئران على كل شيء، وكذلك الحشرات والدّيدان، فوجد رهبان الكنيسة أن يتركوها لعدم استطاعتهم الاستمرار في العيش بتلك الطريقة. فذهبوا وصعدوا جبل سيناء حيث أعطى الله موسى كتاب العهد، وكان أنّ بعض من سبق في المسير شاهد امرأة جميلة حيّته باسم الله وسألته عن وجهتهم، فأجابها بما حصل ولماذا تخلوا عن الكنيسة. فقالت لهم السيدة: «ارجعوا وعودوا إلى الكنيسة وأنا أعدكم بأنه لن يتلف زادكم ولن تتعرضوا لأيّ أذى، وستجدون على أبوابكم 50 جملاً محملاً بالزاد، وكل ما تحتاجون إليه». رجع الرهبان ولدهشتهم وجدوا كل ما وعدتهم به السيدة، ومنذ ذلك الوقت لا ينقصهم الزاد أبداً. ونحن أيضاً نتمنى ألا ينقصنا الزاد وكل ما نحتاج إليه إلى يوم مماتنا، رفقاً بالدّم الذي أراقه المسيح على صليبه من أجلنا مضحياً بنفسه وكفارةً عن ذنوبنا.

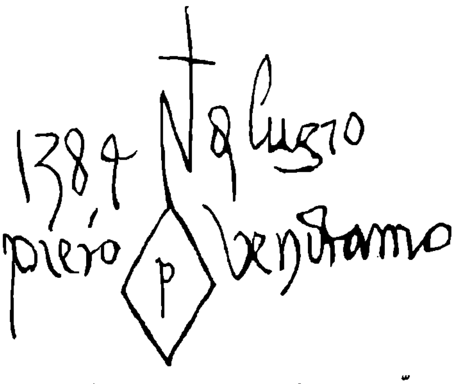
انتهى من الكتابة الثلاثاء 4 أكتوبر 1390، يوم ذكرى القديس فرنسيس المبارك. والمجد لله. آمين.

هنا تنتهي رحلة سيمونِه سيغولي

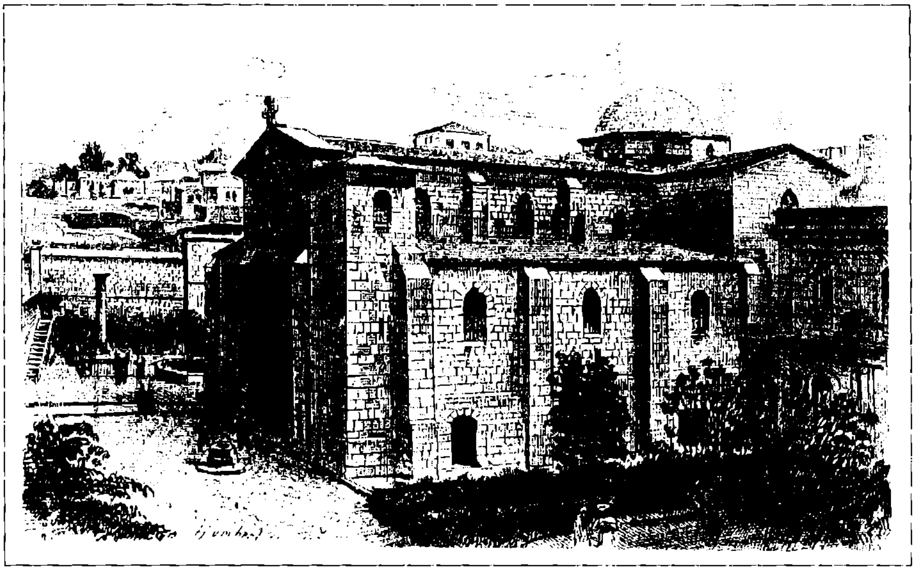
* * *



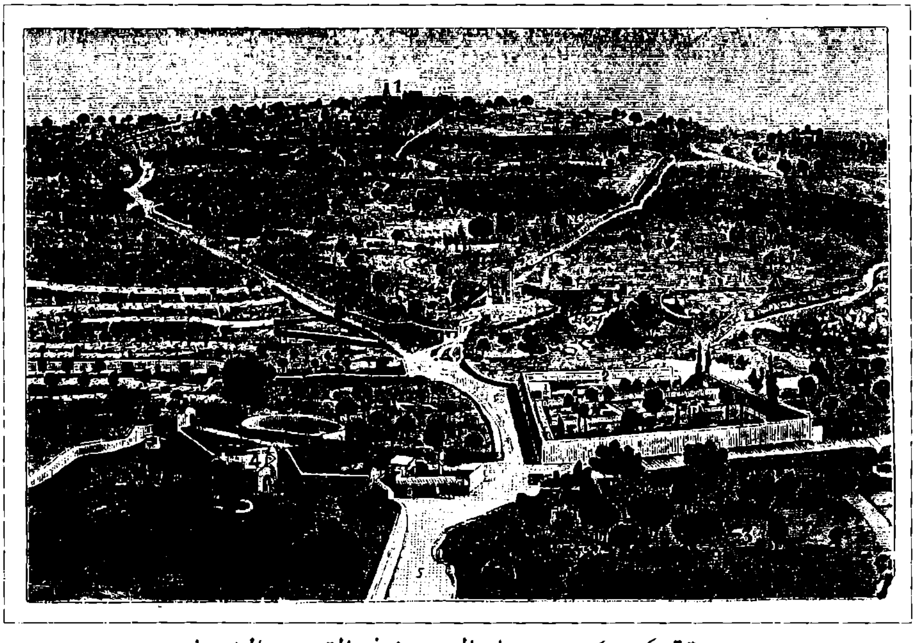
كنيسة الضريح (القيامة) في القدس



الكتابة التي خطّها پيرو ڤِندرامو على باب الضريح سنة 1384 م

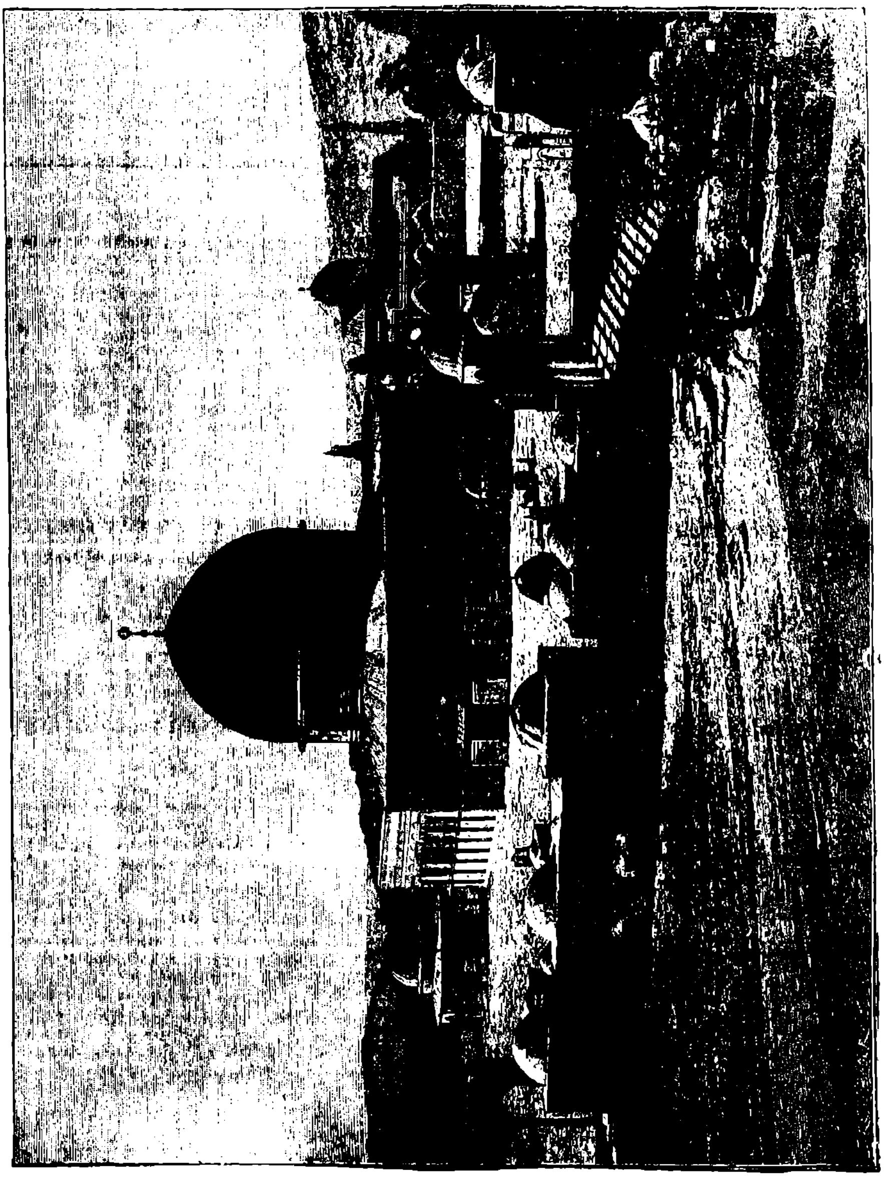


كنيسة القديسة حنّة والدة مريم العذراء في القدس



حديقة جَتسِمَني وجبل الزيتون في القدس الشريف

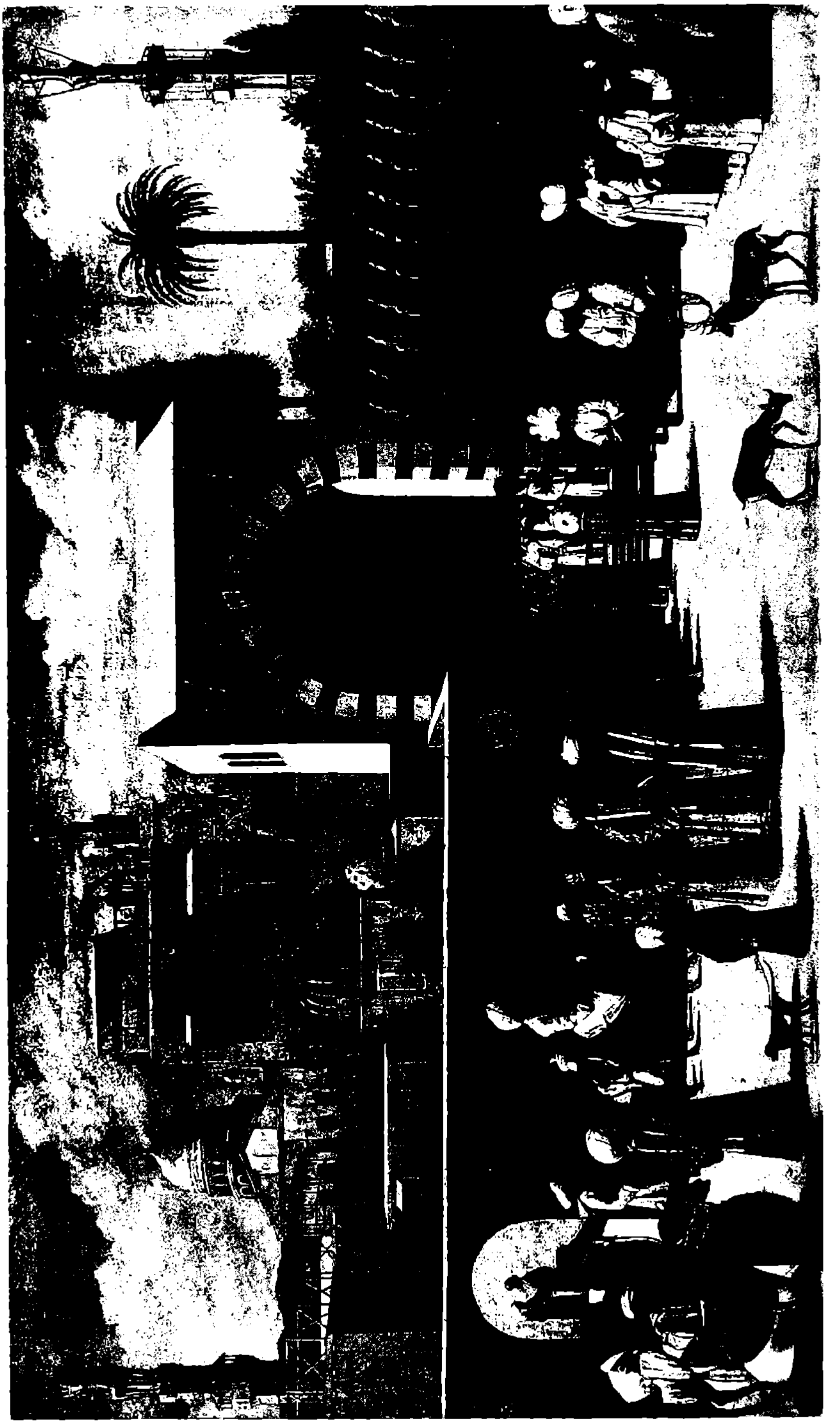
إلى اليسار: قبّة الصّخرة من جهة الشمال الشرقي ⇦

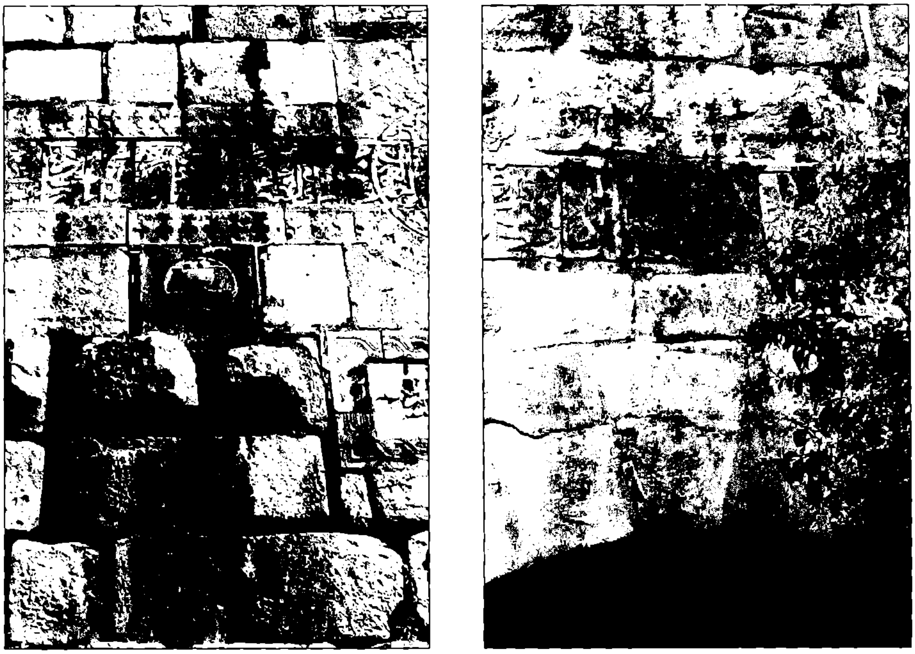




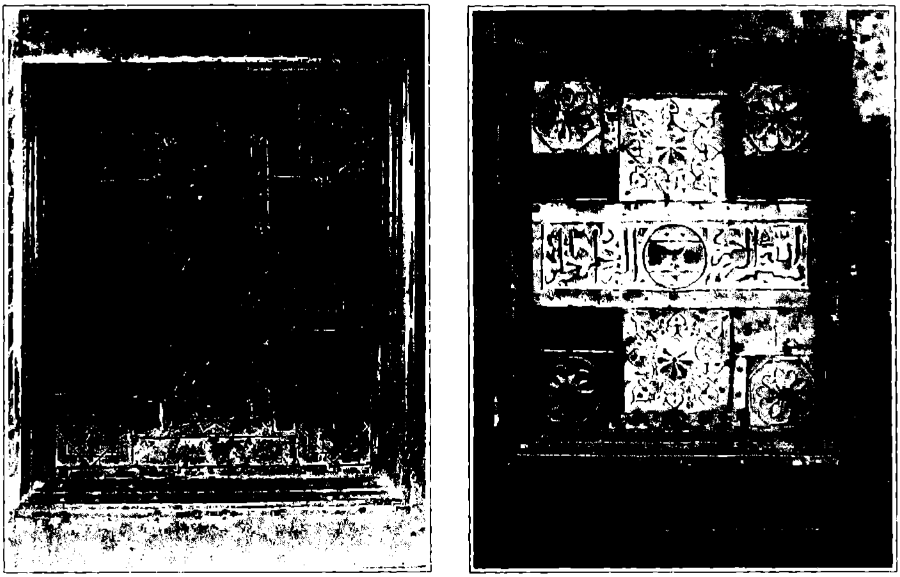
دمشق في عام 1470 م للرسام الإيطالي ياكوپو دانجولو Jacopo d'Angiolo

الصورة إلى اليسار: لوحة متحف اللوڤر الشهيرة المؤرخة عام 1511 م
وتمثل استقبال سفير البندقيّة بدمشق في أيام السّلطان قانصوه الغوري

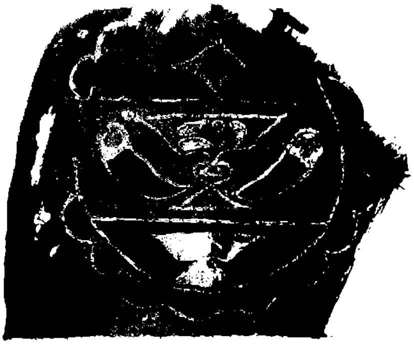




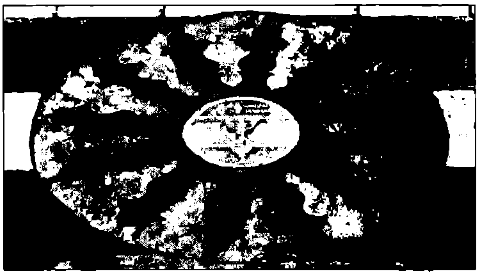
نموذجان لرنك الملك الناصر فرج بن برقوق، قلعة دمشق الواجهة الشمالية



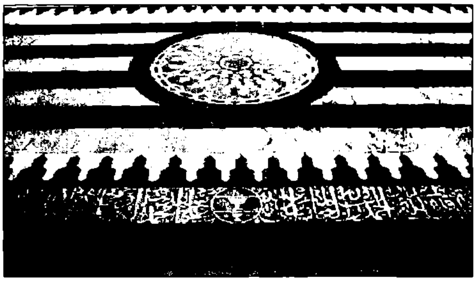
نموذجان لرنك الملك الناصر فرج في أبواب الجامع الأموي الكبير بدمشق



رنك السّلطان الأشرف قايتباي منسوجاً بالقماش (قارن لوحة اللوفر)



رنك الأمير سيف الدّين جَقمَق العلائي، من مدرسته بدمشق



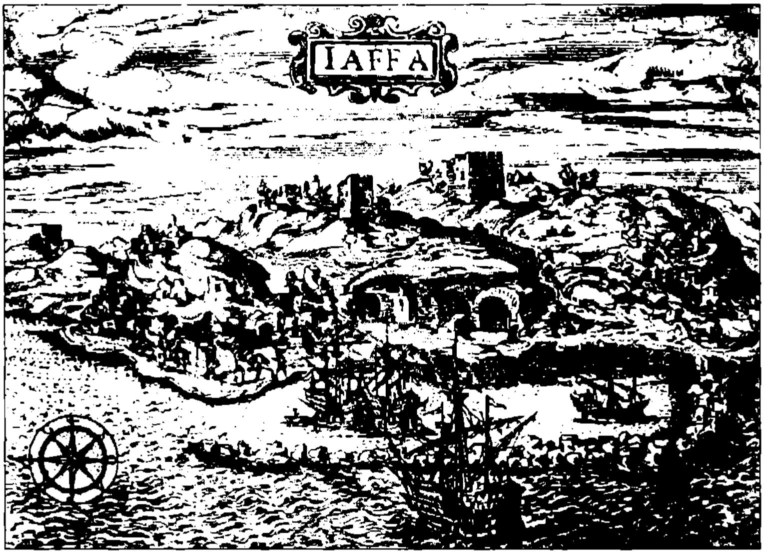
رنك الأمير تَنبك الحَسني، من تربته في الميدان بدمشق



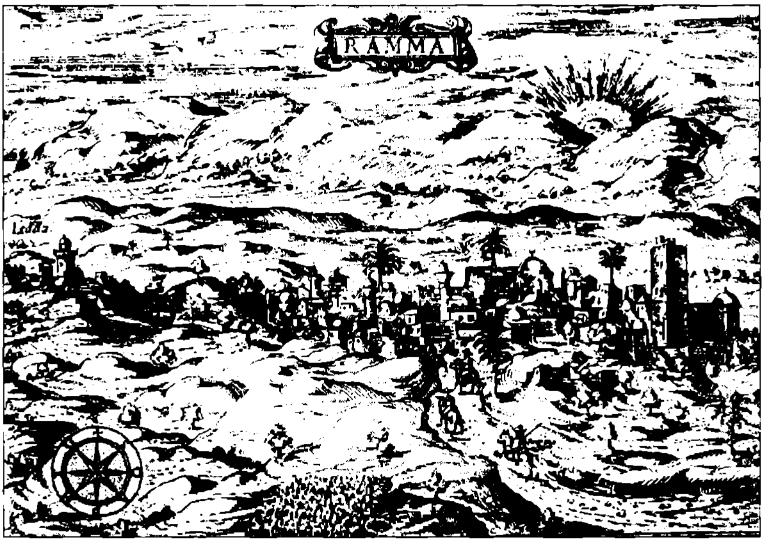
رنك أغُرلو العادلي على تربته في حي الصالحيّة بدمشق



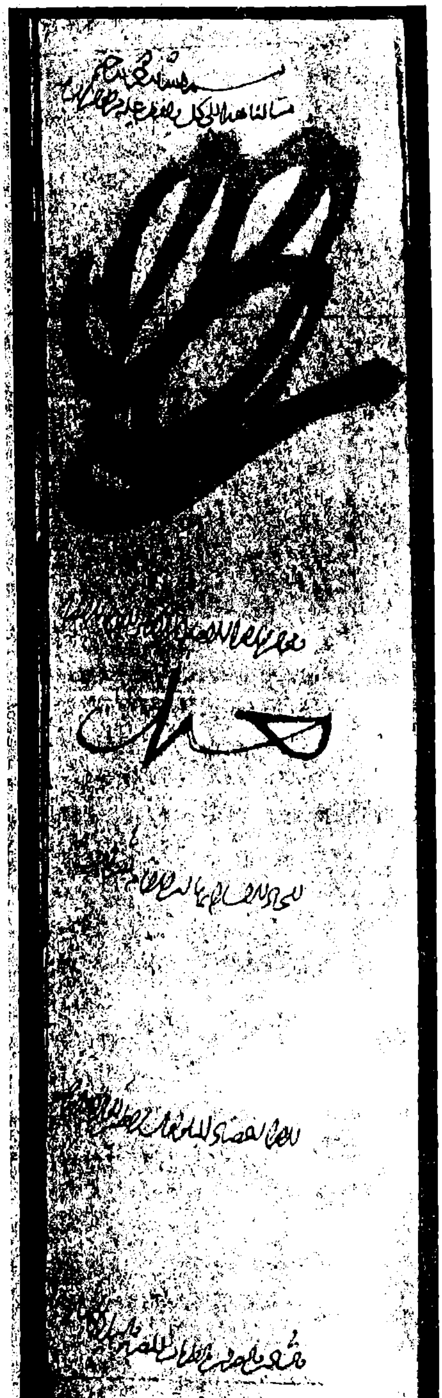
القدس الشريف
نُقيشة قديمة بشكل خريطة



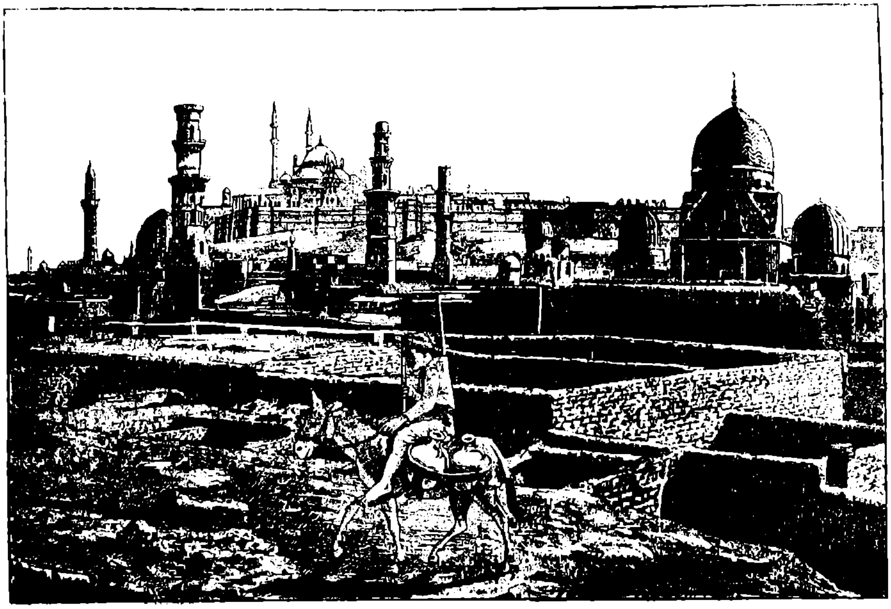
نقيشة قديمة تمثل مدينة يافا



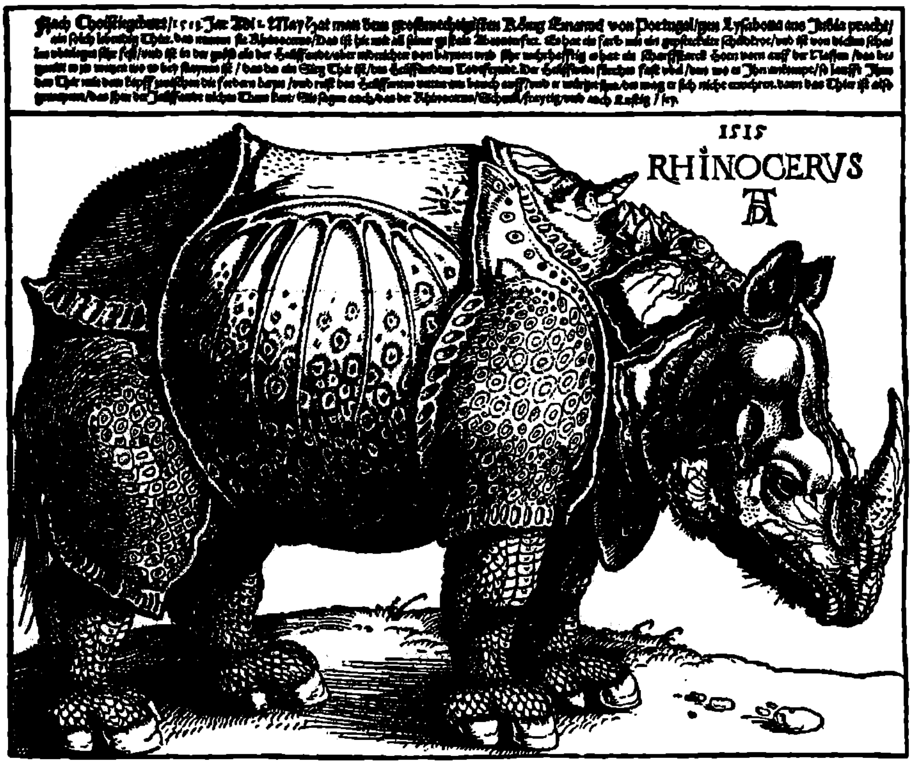
نقيشة قديمة تمثل مدينة الرّملة



نموذج لمرسوم سلطاني أصدره السّلطان الظاهر برقوق لمصلحة رهبان طائفة الفرنسيسكان في القدس الشريف (محفوظ في أرشيف دير المخلّص في القدس).

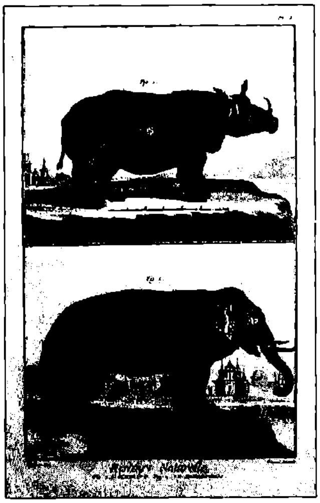


نُقيشة تمثل قبور الخلفاء في القاهرة

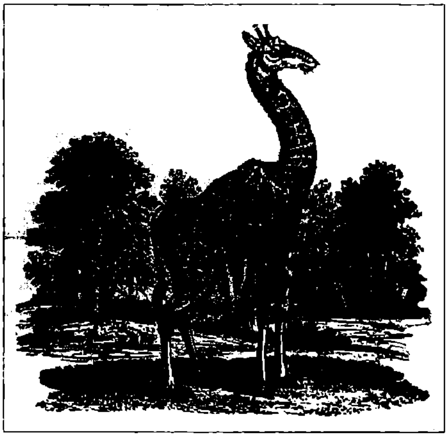


نقيشة تمثل وحيد القرن للرسّام الألمانـي ألبريشت دورَر 1515 Albrecht Dürer





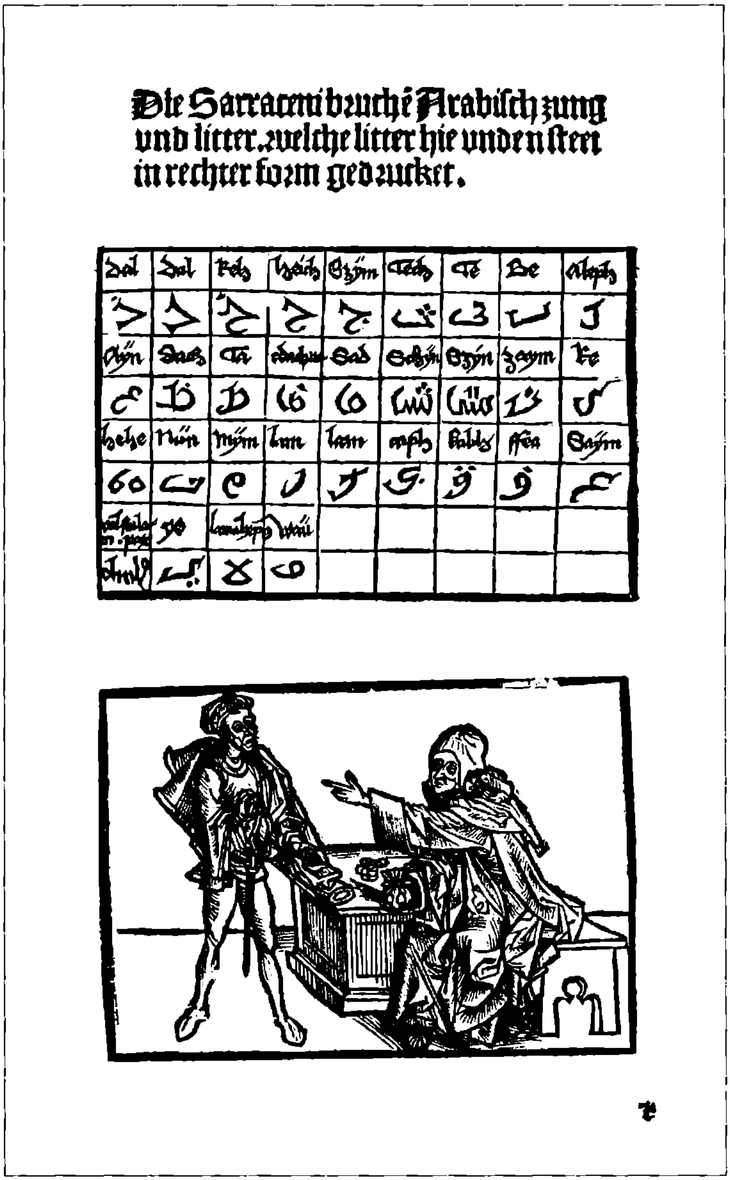
نقيشات قديمة تمثل الزرافة والخرتيت والفيل



نقيشة قديمة تمثل الزرافة



رسم يمثل أشخاصاً في المشرق
في عصر سلاطين المماليك
عن مخطوطة أوروبية قديمة

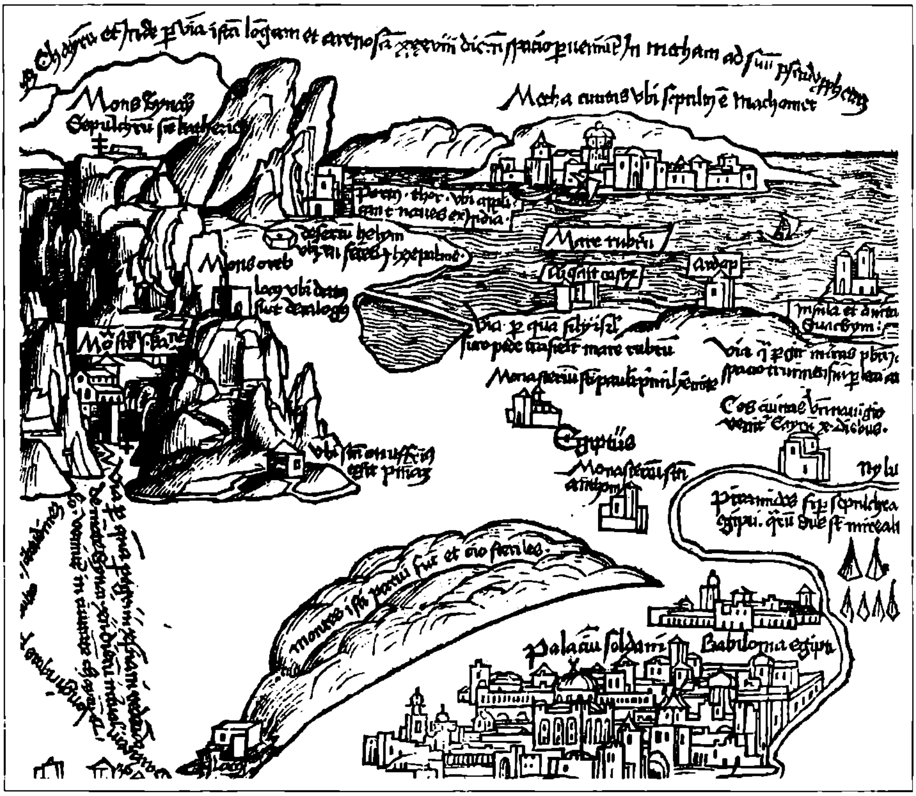


لوحة من كتاب الرحّالة الألمانـي برنهارد فون برايدِنباخ

Bernhard von Breydenbach: *Peregrinationes in Terram Sanctam*

عام 1483–1484 م (والكتاب مطبوع في ماينتس 1486 م)

تمثل حروف الأبجديّة العربيّة، وفي الأسفل الصّيرفي



لوحة من كتاب الرحّالة الألمانـي برنهارد فون برايدِنباخ

Bernhard von Breydenbach: *Peregrinationes in Terram Sanctam*

عام 1483–1484 م (والكتاب مطبوع فيماينتس 1486 م)

تمثل تفاصيل من مكّة المكرّمة، والقاهرة، وجبل سيناء



لوحة للرسّام الألمانـي ريويڤيخ E. Reeuwich
منشورة في كتاب الرحّالة الألمانـي برنهارد فون برايدِنباخ
Bernhard von Breydenbach: *Peregrinationes in Terram Sanctam*
عام 1483–1484 م (والكتاب مطبوع في ماينتس 1486 م)
تمثل أشخاصاً مسلمين *Sarraceni* في عهد المماليك



لوحة قديمة للرسّام الإيطالي جوڤانّـي مانسويتي (تلميذ بلّيني)
تمثل ثلاثة من أعيان المماليك يعتمرون «الزّموط»
الذي ذكره سيغولي في نصّ رحلته أعلاه (انظر ص 125)



نُقيشة قديمة تمثل قروياً عربياً يعتمر «الزّمط»

من كتاب الرحّالة الفرنسي پيير بولون دى مان:

Pierre Belon du Mans: *Les Observations de plusieurs Singularités et Choses Mémorables trouvées en Grèce, Asie, Judée, Egypte, Arabie.* (1546 à 1549). Paris 1553, 1588, Anvers, 1555, 1589.



نُقيشة قديمة تمثل أحد أعيان المماليك الجراكسة يعتمر «الزّمط»

من كتاب الرحّالة الفرنسي پيير بولون دى مان:

Pierre Belon du Mans: *Les Observations de plusieurs Singularités et Choses Mémorables trouvées en Grèce, Asie, Judée, Egypte, Arabie.* (1546 à 1549). Paris 1553, 1588, Anvers, 1555, 1589.

فهرس الكتاب

* * *

رحلات إلى الأراضي المقدسة

في أواخر القرون الوسطى. وتحديداً في عام 1384 للميلاد. قام 13 رجلاً من نبلاء توسكانا برحلة حجّ إلى مصر وفلسطين والشام، في أوائل أيام دولة المماليك البرجيّة التي كان على رأسها آنذاك السّلطان الظاهر برقوق. من بين هؤلاء الرحّالة قام ثلاثة من مدينة فلورنسا بتدوين وقائع رحلتهم وما جرى لهم فيها من وقائع، وما رأوه من عظمة مدن الشرق إبّان ازدهار المماليك، بعد 97 عاماً من طرد الغزاة الصليبيين، وقبل 16 عاماً من كارثة الغزو المغولي. وهؤلاء الثلاثة هم: ليوناردو فريسكوبالدي، وسيمونه سيغولي، وجورجو غوتشي. نطالع في هذا الكتاب الطريف أحداثاً حيّة ووصفاً حياً مدهشاً لمدن الشرق التي زارها هؤلاء النبلاء الإيطاليون، فعدّدوا فيها أماكن الحج والزيارة بفلسطين، ووصفوا طرق السفر والمدن والقرى والمعالم الطبيعيّة. وخصّوا التجارة بجانب واف من كتاباتهم، وأدهشهم الغنى التجاري والتقدّم الحضاري للمشرق.

السعر 65 درهم

9789948017134

أبوظبي للثقافة و التراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE